

الحج النبيل

مسجد
الاسود

عَلِيّ بْن جَابِر الْفَيْفِي

دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٤٠هـ

مكتبة مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر

الرياض، علي بن عبد

الرحمن النجدي / علي بن عبد القوي - ط ١ - الرياض ١٤٤٠هـ

ص ١٦٨ ٢٠٠٦م

ردمك: ٧-٥٥-٨٢٥٢-٦٠٣-٩٧٨

أ- العنوان

١- السيرة النبوية

١٤١٠/٩١١٧

ديوي ١٣٩

جَنُودُ الطَّيْلِ جَنُودُ الطَّيْلِ

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م

رقم الايداع: ١٤٤٠/٦١٢٧

ردمك: ٧-٥٥-٨٢٥٢-٦٠٣-٩٧٨

دار الحضارة للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض

daralhadaarah@hotmail.com

الرقم المخصص: 920000908 هـ كس: 2702719 - 011

0551523173 @daralhadaarah

زوروا متجر الحضارة: hadarah.store

متجر الحضارة

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م



توزيع وإخراج

Mustafa.h123@hotmail.com





الإهداء

كان النبي ﷺ إذا أراد أن يخطب يستند إلى جذع شجرة ويخطب..

و ذات يوم صنع أحد الصحابة الكرام للنبي ﷺ منبراً ليخطب عليه بدل ذلك الجذع، يقول الراوي: فلما وُضع المنبر أول ما وُضع، وجاء النبي ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى المنبر، فعند ذلك حنّ الجذع، وجعل يئنّ كما يئنّ الصبي..

إلى «الجذع» الذي حنّ ذات يوم للحبيب - عليه الصلاة والسلام - أهدي هذا الكتاب.

علي بن جابر الفيافي

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وصحبه ومن
والاه، وبعد؛

فإن نفسي منذ زمن تُراودني لأكتب في السيرة النبوية،
والحديث عن أيام المصطفى ﷺ وأخوض تجربة التشرف بكتابة
شيء عن شمائله وصفاته الزكية النقية، فأجدني أنهب وأنردد
حيناً، وأعجز وأحار حيناً.

ولا أحفي القارئ أن لي محاولات سبقت هذه المحاولة،
كانت الأولى منها قبل اثنتي عشرة سنة خصصتها لرحمة ﷺ
ثم ضاع كل ما جمعته وكتبته، والحمد لله الذي لا يُقدر إلا
الخبر.

ولي محاولة أخرى بدأتها قبل سنتين، وصرتُ أنعهدها كلما
نشطت الهمة في الإجازات مُضيفاً، أو مُغزراً ومُعدلاً، بسم الله
إنعامها على ما يحب ويرضى سبحانه.

أمّا هذه الأوراق الموسومة بـ «الرجل النبيل» فقد طرأت
فكرتها قبل شهرين تقريباً، ثم وجدْتُني أكتبها، وكأنَّ سنّاً ما

قد شق لي، فأسلكه وأنا خير بمضائقه ومهايعه، ووجدت راحة في كتابة هذه الأسطر، التي تأخذ من كتابة السيرة شيئاً، ومن كتابة الشئائل شيئاً، ومن سير الصحابة الكرام شيئاً، فكانت مزيجاً محمدياً إن صحَّ التعبير، وسيرة موضوعية، لم أحرص على شكلها بقدر حرصي على ذاك المذاق العام الذي أرجو أن يحسّه القارئ، مذاق الحبِّ والهيبة لهذا النبي العظيم.

سمَّيتُ هذه الأوراق «الرجل النبيل»؛ لأنه ﷺ أنبلُّ رجل عرَّفته البشرية؛ ولأنَّ النبيل ظاهر في تفاصيل حياته، في رضاه وغضبه، في حزنه وفرحه، قبل نبوته وبعدها، فهو بحقُّ الرجل النبيل.

ولا أخفي أنَّ إخوة فضلاء كثر أقترحوا عليَّ خوض هذه التجربة بعد صدور كتابي «لأنَّك الله» فقالوا: لماذا لا تكتب شيئاً عن النبي محمد ﷺ لعلَّ الله يفتح عليك ما يفيد الأجيال المنعطفة لمعرفة سيرته، والاقتداء بهديه.

فلعلَّ اقتراحاتهم، ودعواتهم، وسابق اهتمام وقراءة لديَّ في هذا الجانب، ثم قبل هذا وبعده إرادة وتيسير من الله - سبحانه - كانت كلها أسباباً جعلت هذا العمل

المتواضع يظهر، وإن كنت أرى أنه بحاجة إلى تهذيب أكثر،
وزيادة فصول أخرى مهمة تتعلق بجوانب من شخصيته
و... فلعل مثل هذه الإضافات تخرج في المستقبل في نفس
هذا الكتاب، أو في جزء آخر منه!

أسأل الله تعالى أن يجزي خيراً كل من اقترح، أو دعا، أو
راجع، أو صوّب، وأخص الشيخ الفاضل: أحمد بن غانم
الأسدي (صاحب الكتب المباركة في سيرة النبي ﷺ) فقد
قرأ جزءاً كبيراً من الكتاب، وتفضل بتصويبات نافعة،
وإرشادات مهمة فجزاه الله خيراً.

وأسأل الله أن يبارك في هذا الكتاب، ويفضل - سبحانه -
على كاتبه والديه وأهله، وكل قارئ له، ويغفر لنا ولجميع
المسلمين.

وأن يُنيلنا - سبحانه - شفاعته نبّه الكريم.. هذا وصلى
الله وسلم وبارك على سيد الخلق محمد، وعلى آله وصحبه
أجمعين.

علي بن جابر الفيضي





لو استنطنا العودة إلى الوراق أكثر من ألف وأربع مئة
وخمسين سنة، والدلوف إلى مكة، والنظر إلى سوق من أسواقها
نظرة علوية، لكُنَّا رأينا صورة مكنته بالحياة والحركة.

هنا رجل يبيع فهاشاً جلده من رحلته إلى اليمن، ويُغالي
في سعره لبنال من ذلك الحاجِّ ثمنًا طيبًا، برفع من مسنوى
معيته.

وذاك آخرُ يعرض سبورًا ودروعًا حديدية، وينفد أمامه
ثلاثة بناملون ما جلده من سلاح جيد الصنع
وهناك امرأة تسقي الناس الماء..

وفي مدخل السوق رجال منحلِّفون حول سانس خبول
بُعلي صونه في وصف فرس أصيلة، يدعي غمَّزها ونفردُها في
الصفات.

وهناك (دكان) ندخله النساء خفِرات لبِشترين حاجياتهنَّ،
ونخرجن منلُفات بمُرطهنَّ حياءَ وجِشمة.

وفي ظل تلك الشجرة يجلس الشاب "محمد" هادئ الصوت، منقّ القنمات، وقد بسط بضاعته كما يفعل كل من في السوق، فإذا ما وقف مُشترٍ يسأله عن سلعة ما، ذكر له مميزاتها كما يفعل أي بائع، ثم أردف بذكر بعض ما يعيبها، فلا تُفتر تلك المعاييب المشتري بقدر ما تُغريه للشراء؛ لأنها تُشعره بمصادفة هذا الرجل الأمين.

كان جميع من في السوق برؤفون الحياة بعبون لا ترى غير الدينار والدرهم، ويستمعون إلى ذلك الضجيج بأذان لا يصل إليها إلا لغة: "من يزيد؟ من يزيد؟" .. ولا عجب، فهذا سوق، ومن الغريب ألا يكون الشخص بهذه الكيفية في سوق يجتمع فيه الناس للبيع والشراء.

ولكن العجب هو مجموعة القيم التي تُشكّل سورًا مُحيط بذلك الفتى آف الذكر، والتي تجعل الدينار والدرهم في منزلة متأخرة من اهتماماته، وكأنه لم يحضر للسوق لبيع، وإنما ليوزع شيئًا من رؤاه، واعتقاداته، ومبادئه بالمجان، حتى يتضح على هذه الكنل البشرية شيئًا من إنسانيته المكتظة بالأشياء الثمينة. كان يسمع الكذب الذي تنثره الأفواه في أزقة ذلك السوق،

ونسير به وديان مكة آخر النهار، فيُقاومه بأحرف يتحرى
فبهن الصدق أدق ما يتحرى.. وكأنه يتخايل كلمات الصدق،
وهو يشمخن بأنفة بين أطنان الكذب الميت.

وسؤال يُبشع من عينيه: ما قيمة الحياة بلا صدق؟ وما أهمية
الوجود بلا أمانة؟ وما فائدة البقاء بلا نبل؟

ثم شمس ذلك اليوم بالغروب، فإذا بكل بائع يفتح مخبأه،
أو ضرة نفوده الجلدية ليعدّ دنائره التي جلبها له الكذب
السارد، والحلف باللات والعزى على أن تلك السلعة من
أجرد ما يمكن شراؤه.. بينما محمد يسير متجهاً إلى بيت زوجه
خديجة، منشغل البال بأولئك الذبن يعتقدون أن الكذب
البوابة الوحيدة لجني الأرباح، ويتمنى لو استطاع أن يزرع ما
يؤمن به في تلك القلوب المنهكة، التي تظن أن الحياة غير ممكنة
بدون شيء من الزيف والمكر.

بصل إلى بيته، ويدفع بغلة تلك الجولة إلى زوجه، ويحمل
شيئاً من الزاد الذي هيأته له خديجة، وينطلق بهدوء إلى المكان
الذي يجده فيه نفسه، ويللملم فيه شتات روحه التي مرقتها
جاهلية ذلك الزمن المظلم.

❧ في الفار

ليس في طريقه إلى عزلته شجرة ولا حجرة؛ إلا وشيء
كألمية يَغشاها إذا ما مرَّ بجوارها! يَسْكُ ما ينبعث من
خطواته، وسَدَى خاص يَتَجَّع عن امتزاج عطره بعطر تلك
الجمال الشاذة التي ينظر إليها، وتنظر إليه.

وما هي عزلته؟

لقد أنهكه الإنسان بشكله الحالي، لقد تعب من الكذب
الذي يُلَفُّ المشاعر والأحاسيس والمعتقدات.. كل شيء حوله
بمارس خيانة ما، وهو الوحيد الذي بات البياض هو اللون
المفرد لنسج نفسه الطيبة.

إن هؤلاء بسجدون للأصنام، هذه الأصنام التي لا يشعر
تجاهها بأي شعور إيجابي!

ويذبحون للأوثان، ويخلفون باللات والعزى، ويَزَنون،
ويكذبون، ويَغشُّون، ويشهدون الزور، ويدقنون بناتهم،
ويشُنُّون الغارة تلو الغارة لأجل ناقة مسروقة، أو كلمة
منطوقة! ما الذي نبأ من القبح لم تقترِفِه أرواحهم؟ كل شيء

أسود مظلم بات عادةً وتقليدًا يجاربون من أجله، ويدافعون عنه، ويهتفون به.

هذه الحياة السوداء لا تليق بمحمد، مهما حاول أن يمسح شيئاً من السواد عن لوحها الكبيرة، إن الأصباغ القائمة تراكمت بطيش، حتى بات من العسير إضافة لون أبيض، أو معنى جميل؛ لذلك فقد حُجب لهذا الشاب أن يترك الجاهلية وراء ظهره، ويذهب كلياً سنحت له الفرصة إلى تلك الجبال البعيدة، تلك الجبال التي يستمعها تهمس بأشياء تُدركها رُوحه، ولا ينحققها عقله، كأنها تُريد أن تقول له شيئاً مهماً للغاية، كأنها تُريد أن تُفصح له عن ماهيته التي ما زال حتى اللحظة لا يدركها.

يصل إلى تلك الجبال، فتنهال عليه مشاعر يصعب على أهل مكة إدراكها، مشاعر تجعل الحياة كلها شيئاً صغيراً بموازاتها.

يرمق الغار وكأن صدافة حميمة تربطه به، فيرقى صخور ذلك الجبل متوسط الشموخ، وكأنه لا يمكن لشموخين عظيمين أن يجتمعا في مكان واحد!

يدخل الغار، فيلتقي النوران، نور يتدفق منه، ونور آخر يتدفق إليه.

والغار بعد أن كان جزءاً من جبل صغير، بات الجبل العظيم (محمد) جزءاً منه! والعادة أن تكون المغارات في الجبال لا الجبال في المغارات.

يُنزل زَوَادته في زاوية من زوايا الغار، وَيَفْرِش بِساطه، ويظهر، ويبدأ في التحنُّث، وهذا التحنُّث والتعبُّد هو حياته التي يترَوِّد لها، ورحلته التي يتجسَّم لها.. ويأخذ في انهالات تنزيه خالقه عما يسمعه ويراه من تجاوزات البشر الذين عبدوا كل شيء غير ذلك الخالق، عبدوا الحجر والشجر والشمس والنمر، عبدوا الشهوات والأهواء، وبنوا آلهتهم من الآجر والطين والنمر والسمن، ثم سجدوا لها.. وتركوا رب السموات السبع، ورب الأرض، رب العرش العظيم.

نرى من أين جاء ذلك النور لقلب محمد؟ وكيف انشقت هالاته في قلبه بتلك الكيفية العجيبة؟

هل حادثة شق صدره في شُعب بني سعد هي البداية؟ عندما كان في السادسة من عمره وهو يلعب مع الصبيان، إذا برجلين غريبين بقدَّمان، فيهرُب الجميع منهما عداة، قبضِجَعانه أرضاً، ثم يَشْفَان صدره، ويتزعان منه علفه سوداء، ثم يقول أحدهما للآخر: هذا حظُّ الشيطان منه.

فبرعان حظَّ السُّبْطان، فبغدر إنسانًا يعبش بلا نُرْغات
سُبطانية!

ثمَّ يَحْشَوْنَ صدره نورًا، ويغِيلان قلبه بهاء المُرْن، ثمَّ
بُعِيدانه ويرْتُفِئان ذلك الشَّق.

هل تلك القِصَّة هي بداية تلك الأنوار في ذلك الإنسان؟
أم أن هناك إرادة سبقت تلك الحادثة، فكتب السَّيَر تروي
أنَّهُ منذ أن وُلِدَ كان طفلًا غريب الأطوار، ما إن وضعت أمُّه
حتى شَخَّص بعينيه الصغيرَتَيْن إلى السماء، وكأنَّهُ من أول
برم- بل من أوَّل لحظة يُعلن انتهاء كل شيء فيه لجهة النقاء
والصنْاء والعظمة!

بل ويُرَوِّى أَنَّهُ -وقبل ولادته- كانت هناك إرهابات
تؤكد أنَّ شيئًا قادمًا إلى الدنيا لا يَنْتَمِي إليها إلَّا بقدر انتهاء نور
الشمس إلى الكون، سيأتي لِيُضيء الأرض، وإن كان سهاويًّا
التوجُّه والاهتمام والمرجعية.

فقد رأت أمُّه أَمْنَهُ بنتٌ وَهَبَ نورًا يَخْرُج منها نُضْيء له
قصور بُضْرَى في الشَّام!

ثمَّ إذا رَجَعنا إلى الخلف أكثر، قرأنا عن إرهابات متعددة

تسبىح بقرب مجيء الرجل الأهم في التاريخ.. إذن ليست
أنواره حادثة، ولا إرادة أن يزور هذه الحياة قريئة، إنها بعمر
هذا الكون، لقد قدر الله أن يكون هذا الرجل هو نهاية عهد
الظلام الإنساني، والكذب البشري، وطغيان الزيف، وتغول
الفجور.

التحول

وبينا هو في غمرة أذكاره، وتسبيحاته.. إذ بزائر غريب
يلج الغار!

فينهض محمد ليقف وجهاً لوجه مع القادم الغريب، إنه
بجمل أنساماً غريبة تشبه أنسام الرجلين اللذين شقاً صدره في
الصغر.

يقترّب، وكأنّ السماء اقتربت منه، إنه بجمل شذى السماء
السابعة! وإحساسات ليست أرضية على كل حال.

إنه جبريل أعظم ملائكة السماء.. لقد نزل ليوصل لهذا
الرجل رسالة خاصة من الله!

لقد بات محمد نقياً لدرجة الصفاء البحت، وبات داخله

سماء مليئة بالأنوار، وعالمًا مُتَخَمًا بالطهر، وهذا هو الحيز
 المناسب لتَنَزُّل فيه أعظم رسالة، تتضاءل عن حملها الجبال
 الشاخنة، ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَضِعًا
 مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.

لقد بات محمد جاهزًا ليكون أشدَّ من جبال الدنيا جميعًا،
 وأطهر من مياه الكون بأكمله، وأنور من شمس المجرَّة
 مجتمعة.

يقرب جبريل من محمد، والاستغراب يطوّقه، والتساؤلات
 تنهال بعزارة، فإذا بصوت جبريل المتخَم بالوحي يملأ الغار
 الذي في الجبل، والجبل الذي في الغار بالرهبة، والهيبة، والحب:
 (اقْرَأُ) ..

إن شيئًا عظيمًا، مفتاح عظمته أنه يُقرأ، سينزل عليك الآن!
 إن أوَّل كلمات الله المقدَّسة ستلامس شغاف قلبك بعد دقيقة..
 يجب على خلایاک في هذه اللحظة أن تنهيا تهیؤًا خاصًا..
 (اقْرَأُ) ..

فُجِيب محمد: ما أنا بقارئ ..

أنا لا أفترق بين الألف والباء، ولا أجيد مسك القلم، ولم
أتعلم كيف تُنطق الحروف المكتوبة، فكيف أقرأ!

فيضّمه جبريل ضمةً ظنّ محمّد أنّها الموت! لشدّتها، وقوّتها.

﴿إِنَّا سُلِّقْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، إن الفول الثقل بحاجة إلى رمز
يُثني بثقله، وإرهاص يتحدث عن عظمتها، ورساله نذكّر
شدّته.. فكانت تلك الغطة والغتّة والضمة إبداناً بأن شيئاً
سماوياً جليلاً سيضمّ تلك الأنوار التي في صدرك، ويجعلها
تندفق لا على مكّة فحسب، بل على القارّات السبع، ليتهاي
عهد الظلام في هذا الكون المظلم.

فبَرَكة جبريل، ويُعيد عليه: (اقرأ)..

فُعيد محمّد مقولته: ما أنا بقارئ..

فيُعود جبريل ليضمّ الضمة الثانية، تأكيداً وتثييناً لمبدأ ثقل
الرسالة، وعظمة الوحي، وصعوبة المرحلة.

ثم يتركه، ويُعيد نفس الكلمة: (اقرأ)..

فيُعيد نفس الجواب: ما أنا بقارئ..

فتُعود تلك الضمة الشديدة، التي تُشبه الموت لشدّتها،

وتُشبه الحياة لعظمتها.. وكأنَّ الموت والحياة تحالفا في لحظة
يُسكِّلا بداية موت الوثنية، وحياة النور!

وهنا يتوقف الكون مصغياً لأول الرسائل القادمة من
السماء إلى الأرض، وأول خيوط النور الإلهي المتسلل عبر
أبواب السماء العالية: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ
الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾.

هكذا قالها جبريل.. فما بقيت خلية في جسد محمد ﷺ
إلا وأُخْبِتَتْ.. وما بقيت ذرّة في مساحات الكون اهتلت إلا
واستبشّرت.. إنها اللحظة التي تحوّل فيها محمد بن عبد الله بن عبد
المطلب بن هاشم القرشيّ من محمد إلى النبيّ محمد، ومن الرجل
الطيب الصالح الصادق الأمين إلى النبيّ العظيم ﷺ، ومن أحد
العالمين، إلى رحمة العالمين.

إن نزول النبوة على شخص كان قبل لحظات شخصية
عادية، ثم وبعد لحظات تحوّل إلى شخصية عظيمة، بل وأعظم
شخص في الوجود لا ينبغي أن تُتصوّر هيئته، أو عادية، إنها
أثقل من الجبال نفسها، وأغرب من الوجود ذاته، وأهيب من
إشعاعات الشمس عيناها.

إن ما حدث في غار حراء، تلك اللحظات أصعب من أن يُعَبَّرَ عنه بالأحرف الثمانية والعشرين، مهما شكَّلتها، وأعدتَّها، وغيَّرت مواضعها.. إنها النبوة، والرسالة، والاصطفاء في لحظاته الأولى.

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، إنه الله الذي جعل الرسالة تهبط على قلب بشري غافل عن معنى الرسالة، وعن ترقُّب الرسالة، وعن إرادة أن يكون رسولاً، ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِينَ﴾.

لذلك فبعد أن خرج جبريل من الغار، تبعه النبي ﷺ وهو برجُف، خوفاً، ورهبةً، واستغراباً، ونزل من الجبل وكأنه حديث عهد بزلزال شديد، أو كأن براكين ضياء نائرة في داخله.

وصل إلى زوجه الطاهرة الصالحة خديجة وهو برجُف، ويقول لها: «دَّثَرُونِي، دَّثَرُونِي»، إنه أشدُّ برد يُصاب به إنسان! إنه البرد الذي يعقُب التحوُّل من الرجل الذي يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق إلى الرجل الذي ينزل عليه خبر السماء في الصباح والمساء.

جمعت خديجة ما في بيتها من الأكسية والأغطية، ثم جعلتها عليه، إلى أن سَكَنَ، ثم سأله عن خبره، فأخبرها بما رأى، وما أَحَسَّ، وما سمع.. فقالت: كَلَّا والله، لا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا.

فكانت هذه الكلمة التي قالتها خديجة ﷺ شعارًا لكل فصول حياة هذا الرجل النبيل، والذي لم يجِدِ الخزي في حياته، بل وجد الله معه، مؤيدًا ونصيرًا، ومُعِينًا وظهيرًا.

مضت الأيام، وباتت النبوة جزءًا لا يتجزأ من مُحَمَّدٍ ﷺ، وصار له أتباع اهْتَدَوْا بهديه، واستنُوا بسُنَّته، وبات له خصوم نابذوه العدا، وشَنُّوا عليه الحروب المعنوية والحسية.. وصار مُحَمَّدٌ قِصَّةُ تُرُوي، وهداية يُسْتَرْشَدُ بها.. صار نورًا وظلًّا، وهُدًى للعالمين.

صار رمز النبل، والحب، والوفاء.. وها نحن نعيش في هذا الكتاب مع نُبله، وحبّه، ووفائه.. مع شجاعته، ورحمته، وإلهامه.. مع أخلاقه النبيلة، وصفاته الجليلة.



المعجم الوردی

«لوراک النبی ﷺ لأحبك...»

عبد الله بن مسعود ؓ

الشيخ النبيل

عبد الرحمن

المعجم السوردي

كان عليه السلام قلباً ينثر الحبَّ ذات اليمين وذات الشمال؛ فصنع
 منه الحبُّ شذى خالداً، لا يمكن نسيانه، حتى إن صحابه
 الذين كانوا قبل بعثته عرباً عَجَنَتْهم الصحراءُ بمزاجها
 الشاحب، وشموسها الغاضبة: باتوا بعد أن تناوَل نفوسهم
 بببضعه أرواحاً تعشق الحبَّ، وتُنشد له، وتموجُ مع ألحانه.
 لقد نفَّس عنهم اللون الأصفر الكالِح؛ فبانت أرواحهم
 ورديّة اللون.

لقد وجدهم عمده عليه السلام رجالاً يدفنون بناتهم؛ لأنهنَّ إناث،
 ويعذِّون المرأة عاراً، ويقتل أحدهم أخاه؛ لأجلِ صُرّة نقود!
 فأعاد صباغتهم من جديد، مستخدماً (إكسير) الحب؛
 فخرجوا خلقاً جديداً كان لم يتباغضوا بالأمس!

هذا عمر عليه السلام، ذو النفس الشديدة في ذاتِ الله، يعبرُ ذاتِ
 مساء عَذْبِ النسمات أنه يتمنى لو أنَّ لديه بيتاً مليئاً برجالٍ مثل
 أبي عبيدة.

وهذا أبو ذر رضي الله عنه عن يضع خدّه على الأرض آمراً بلالاً رضي الله عنه

عنه أن يطأه بقدمه؛ لأنه جرَّحه بكلمة لا تليق ببلال، فيُنهضه بلالٌ ويعانقه.

وهذا سعدُ بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه يمشي بين يدي جنازة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه خائن القوي، مُنهك النفس، يقول بصوتٍ متشقِّق: واجبلاه.

لقد صارت أنفسهم تفهم شيئاً اسمه الحب، بعد أن كان الحب بالنسبة إليهم لغة لا يمكن فك رموزها!

إنها عبقرية الحب، التي استطاع بها النبي ﷺ أن بعيد إنتاج تلك الأنفس؛ فانتفضت فيها الحياة، وانبعث منها نسائم العطر..

❧ لا أدري..

في طريق عودة النبي ﷺ من الحُدَيْبِيَّة، كانت مشاعرُ المسلمين في أعلى مستويات الكآبة؛ إذ إنهم - وكان هذا اعتقادهم في تلك الساعات - لم يَجْنُوا من سفرهم ذاك إلا تعبَ الطريق؛ فلم يعتمروا، ولم يكحلوا أعينهم برؤية الكعبة المشرفة، بل لقد وُقِعَ بينهم وبين المشركين صلح ظنوا بنوده كلها في صالح خصمهم!

في هذا الطريق المليء بالإنهاك، إذا بالبشرى تنزل من السماء؛
يقول تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ
لَكُمْ هَذِهِ﴾.

وكانت هذه المغانم هي فتح خيبر، وقد قدمت بهذا لتعلم
كيف أن فتح خيبر كان سعادة وبشارة، وغشلا لأرواح أنهلكها
صلح الحديبية، الذي لم ير الصحابة بعد كيف أنه فتح مبين، وعز
وتمكن!

وبعد أن تحقّق ذلك النصر في خيبر للنبي ﷺ، وكان شيئاً
كالهدية من الله، بلا كثير عناء، ولا كبير مشقة: نالوا فيه مغانم
وصفها الله تعالى بالكثيرة!

وفي طريق العودة من خيبر، إذا بصديق قديم، وفريق
حبيب، وحب عميق يظهر في الطريق... إنه جعفر بن أبي
طالب، بعد غياب دام أكثر من عشرة أعوام، كلها شوق ممض
لرفيق الأيام الأولى من الإسلام، فيلغي النبي ﷺ مراسم
اللقاءات الرسمية، ويعانق جعفرًا بحرارة، ويقبل بين عينيه،
وكانه يؤدّعه أشواق السنوات الرهيبة من عُمر الدعوة.

ثم بكل حب، وبكل قلب مفعّم بالأشواق يهتف: «ما

أدري بأيهما أفرح: بقدوم جعفر، أم بفتح خير؟^(١)

فيجعل لقاء ابن عمه وصديقه القديم: في كفة موازية
لذلك الفتح الذي كان سعادة وعزاً وبشارة

إنها طاقة الحب العجيبة في قلب هذا الرسول العظيم ﷺ.

ثم من؟

كان النبي ﷺ يشعر كل فرد ممن حوله أنه استأثره بذروة
الحب؛ لما يريه من احتفائه الخاص به، وإقباله عليه، وتبسمه له.

فهذا عمرو بن العاص^(٢) عنه كان يتلقاه النبي ﷺ دائماً
بالابتسامة والاهتمام، فما إن يَصُطُّها بيت، أو يجمعها حديث
حتى تأخذ مشاعر الحب ترفرف كطيور بيضاء، وشعور الود
يتعاضد إلى درجة أن عمرو اعتقد مع الأيام أنه أحب الناس
إلى النبي ﷺ؛ فليس من معهود عمرو أن مثل هذا القدر من
الحب يخرج إلا للإنسان يكون الأثير والأحب والأقرب عند
صاحبه وجليسه ورفيقه.

وتوَّج النبي ﷺ ذلك الاهتمام الخاص بأن بعته على رأس
جيش غزوة ذات السلاسل، فوجد عمرو أن الفرصة سانحة

(١) رواه الحاكم في المستدرک.

ليكشف الحقيقة، فأقبل إلى النبي ﷺ وسأله: أيُّ الناس أحبُّ إليك؟ فعاشر لحظات انتظار سماع اسمه في أعلى القائمة، فإذا بالإجابة تأتي: عائشة! فقال عمرو: من الرجال؟ فقال النبي ﷺ: أبوها.. فكان خيبة ما مسَّت قلبَ عمرو، فقال والأمل ما زال يلوح: ثم من؟ قال: عمر بن الخطاب.. وما زال عمرو يقول: ثم من؟ وتأني الأسماء، ولا يكون منهم عمرو^(١).

لا شك أن عمرًا سيكون في القائمة، ولكن اسمه سيأتي متأخرًا بعض الشيء، فما زال أحبابه الأولون يعيشون في ذاكرته، ويتحركون في دماغه.

ولكن أجبني الآن: ما الذي جعل عمرًا يظنُّ أنه الأحبُّ؟

البست عبقرية الحبِّ التي اسنطاع النبي ﷺ أن يسع بها كلَّ من حوله؟

❦ المعجم الوردِي

كان للحبِّ مفهومٌ خاص عند النبي ﷺ: فالحبُّ - كما في معجمه الوردِي - رزقٌ يُرزقه العبد؛ فإذا خفق قلبٌ لقلب،

(١) القصة في البخاري.

فهذا لأن الله أراد لذلك القلب أن يخفّق.

قال متحدّثاً عن خديجة عليها السلام بعد موتها: «إني قد رزقتُ حبّها»^(١)، هكذا هو الحبُّ؛ شيءٌ يأتي من الله، لا حيلة للفلس فيه.

وكان يقسمُ بين نسائه فيعدل بيتهنَّ، ولكن كان في قلبه حبٌّ واضحٌ لعائشة، حبٌّ لا يخفى على أحد.

إذا فحققتُ القلبَ لإتسانِ ماءٍ، وميلُ الروحِ إلى روحِ ماءٍ؛ ليست مما يملكُهُ الإنسان؛ لذلك فما كان للنبي صلى الله عليه وآله أن يعاند هذه الإرادةَ الإلهيةَ في قلبه، بل كان يميلُ مع إرادة المَلِكِ سبحانه في غير ظلمٍ، أو قطيعةٍ رحم.

كان يتساءل صلى الله عليه وآله في مرضِ موته في كلّ ليلة: أين سأكونُ في الغد؟ متعجلاً اليوم الذي يصبح وهو عند حبيبته عائشة! إنه الحبُّ الأقوى من كل شيء، الذي يغلبُ كلَّ شيء، ويتجاوز كلَّ شيء.

(١) رواه مسلم.

❧ أَحِبُّكَ

يمشي مُعَاذٌ ذَاتَ يَوْمٍ، يمشي كما يمشي الآلاف، لم يكن يعتقد أنه على موعدٍ بعدَ لحظاتٍ مع أَجَلٍ كلمةٍ يمكن لأذنيه سماعُها في حياته كُلِّها.

فإذا بالنبي ﷺ يقترب منه، ويُمسِكُ يده..

أيّ دفءٍ يَخْطُطُ النبي ﷺ أن يغمُرَ مُعَاذًا به؟

ثم يقول: «يا مُعَاذُ، والله إني أُحِبُّكَ».

يا مُعَاذُ، يمكنك أن تتوقَّفَ الآن عن المسير، وعن الكلام، وعن كل شيء؛ فالنبي ﷺ يَحِبُّكَ!

يا مُعَاذُ، ما قيمةُ الحياةِ بعد هذه اللحظة الباذخة؟

ما حجمُ الفَرَحَةِ التي أحاطت بك من جميع الجهات؟

ما هيئةُ الألوان التي انتشرت أمامك الآن؟

النبي ﷺ يَحِبُّكَ!



أَنَعْلَمُ لِمَاذَا كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ عَنْهُ يَحِبُّ أَنْ يَكْنِيَهُ
النَّاسُ بِأَبِي تَرَابٍ؟

❧ اسْمَعْ الْقِصَّةَ :

جاء رسولُ الله ﷺ بَيْتَ فَاطِمَةَ، فلم يَحْذُ عَلِيًّا فِي الْبَيْتِ،
فَقَالَ: «أَبْنُ ابْنِ عَمِّكَ؟»، فَقَالَتْ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَيْءٌ،
فَغَاضَبَنِي، فَخَرَجَ، فلم يَقُلْ عِنْدِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
لِلنَّاسِ: «انْظُرُوا أَيْنَ هُوَ؟»، فَجَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ فِي
الْمَسْجِدِ رَافِدًا، فَجَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ، قَدْ سَقَطَ
رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ، فَأَصَابَهُ تَرَابٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُهُ
بِنَهْ، وَيَقُولُ: «فُمُّ أَبَا التَّرَابِ، فُمُّ أَبَا التَّرَابِ»^(١).

نَاقِلٌ: الرَّجُلُ الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ لِيَكُونَ رَسُولَهُ إِلَى الثَّقَلَيْنِ،
وَيُنَزِّلُ عَلَيْهِ آخِرَ شَرَاتِعِهِ: يَمْسَحُ التَّرَابَ عَنْ أَحَدِ صَحَابَتِهِ
وَيَقُولُ مِنْحِيًّا سَتُودَّكَ: «فُمُّ أَبَا تَرَابٍ».

فَكَانَتْ هَذِهِ الْكُنْيَةُ الدَّافِتَةُ أَحَبَّ مَا يُمْكِنُ لِعَلِيِّ ﷺ أَنْ
بَسَمَعَهُ، أَوْ أَنْ يُنَادَى بِهِ.



(١) رواه البخاري ومسلم.

هناك أمورٌ لا يُتصوَّرُ تعدُّدها؛ منها: الحبُّ؛ فالحبُّ فيضٌ لا يُتصوَّرُ أن يكونَ متعدِّدَ الأقدارِ، ولكنَّ حبَّ النبي ﷺ يتعاضمُ مرَّةً، ويتعدَّدُ مرَّةً؛ فقد بعثه الله بالحبِّ كما بعثه بالرحمة؛ قال ﷺ لأحدِ أصحابه: «يا أبا يزيد، إني أُحبُّك حُبَّين: لقرايتك، ولحُبِّ عمِّي لك»^(١).



أتاه رجلٌ يُعلِنُ عن حبِّهِ لأحدِ المسلمين، فلم يكتفِ النبي ﷺ بالتريبِ على تلكِ المشاعر، بل أمره: «قُمْ، فأعلِمْهُ..»^(٢).

الحبُّ ثقافةٌ يجب أن تتسرَّ، ولغةٌ يجب أن تُدرَّسَ وأحاسيسٌ يجب أن تُبَثَّ في الحياة.

ويعبرُ ﷺ عن حبِّهِ لزيد بن حارثة بطريفةٍ مألَّها بالحنانِ والرحمة، فقال له ذاتَ يوم: «يا زيد، أنت مولاي، ومنِّي، وإليَّ، وأحبُّ القومِ إليَّ»^(٣).

(١) قال عنه الذهبي روي من وجوه مرسلة.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

(٣) رواه أحمد والحاكم، وحسنه ابن حجر في الإصابة.

وكأنّي يزيد يمرُّ بعينه على أولئك القوم لبخايل الفضة التي
وضعه عليها الرجل النبيل ﷺ لَمَّا قال له: «وَأَجَبُ الْقَوْمُ!»

وكما كان بصُوع الحبِّ كلماتٍ وقُبَلاتٍ، فقد صاغه بطريقة
نادرة تُجهِشُ لها الحياة؛ فهذا سعدُ بن مُعاذٍ كان بُمرَّض من
جراحةٍ أصابته، وقد أوشك على أن يبرأ، وقد باتت أجواء
المدينة مرتبكةً، انتظارًا لشفاء ذلك السيد العظيم.

وفجأةً وبلا مقدّمات، إذا بجبريل عليه السلام يترلُّ،
فبلاقي النبي ﷺ ويسأله: مَنْ هذا العبدُ الصالح الذي مات؟
فُتِحَتْ له أبوابُ السماء، وتحركَ له العرشُ ..

فذهلَ النبي ﷺ، وتذكَّرَ سعدًا، فهُرِعَ إلى خبمته، فإذا
جُرحه قد انفجر، ودماؤه تُثَعَّبُ، فاعتنقه والدماؤه تتدفَّقُ على
وجهه الشريف ولحبه .. ومعاني الحزن العميق بقرؤها الكبار
والصغار على ملامع الرجل النبيل.

فدخل أبو بكر الصديق ؓ في تلك اللحظة الرهيبة ورأى
ما رأى، فقال: وانكسارَ ظَهْرِهِ على سعيد... ثم دخل على أثره

(١) غير اهتزاز العرش لمرت سعد في البخاري وغيره.

عمرُ عليه السلام، ورأى ما رأى، فقال بحنينٍ تنكَّسَ له الصخور
﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١).

تقول عائشة رضي الله عنها: «ما كان أحدٌ أشدَّ فُقدًا على
المسلمين بعد النبي صلى الله عليه وآله وصاحبيه من سعد بن مُعَاذٍ»^(٢).

هذا هو النبي صلى الله عليه وآله، وهذا هو الحبُّ الذي زرعه وسقاه في
قلوبِ أصحابه، وهذا هو سعدُ الذي ارتجَّتْ له المدينة، واهتزَّ
له قبل ذلك عرشُ الرحمن.

الحياة كالحقَّة، وإذا لم نعالجها بشيءٍ من الحب ستُصَيِّبنا بداءُ
المُهْـمِ، فتفتَّتْ دون أن نشعُرَ.

«قُمْ فَأَعْلِمْنَاهُ»؛ حتى تغدو كلمةُ الحب هي السحابةُ التي
تظللُ المدينةَ النبويةَ، فتَهْطِلُ أمطارُ نُشْبِ الأشواقِ التي تطفئُ
لهيبَ الصحراءِ من أرواحِ أَرْهَقَهَا الجَدْبُ.

حتى بعد وفاته صلى الله عليه وآله بات الحبُّ ثقافةً، وصارت المعاييرُ
النبويةُ للحبِّ معلومةً، فيستطيع الجميعُ أن يَعْلَمُوا ما الأشياءُ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد في فضائل الصحابة.

(٢) أخرجه ابن سعد، وأحمد في فضائل الصحابة.

التي لو كان النبي ﷺ حياً لأحبها!

ينظرُ ابن مسعودٍ إلى الربيع بن خثيم، ذلك العابد الذي
يمشي في طرقات الحياة وكأنه يرى الجنة والنار في طريقه،
فيقول له ابن مسعود: يا أبا يزيد، لو رأكَ النبي ﷺ، لأحبك!
إن نفسَ الربيع من النفوس التي يحبُّ النبي ﷺ خشوعها،
واخباتها، وضباع الحياة في عينيها..

من النفوس التي تقرر لدى الصحابة أنها محبوبة لدى
الرجل النبيل عليه الصلاة والسلام، الذي جعل للحب قوانينَ
يقفُّها صحابته جيذاً؛ لكثرة ما يُخبرهم عما يحبُّ، وعما ينبغي
أن يكون جيلاً محبوباً لديهم..

❧ قبايرِخُ الشوقِ

يخرجُ النبي ﷺ ذاتَ يومٍ ومعه مَنْ معه من صحابته، يخرج
قاصداً المقبرة، ذلك الصندوقُ المبهَمُ الذي يحوي أناساً دافعوا
عنه في يومٍ من الأيام، يحوي أناساً اعتنقوا دينه، وآمنوا بمبادئه،
ويذلُّوا أرواحهم لنصرة الحق، يأتيهم ليخصَّصهم بدعاءٍ ممزجٍ
بلهفة الشوق، وكان الشوق يذكُرُّ بالشوق:

وَابْسَرَحْ مَا يَكُونُ الشَّوْقُ جِينًا

إِذَا دَنَسَتْ الْجِيَامُ مِنَ الْجِيَامِ

فينظر إلى صحابته ويقول: «وَدِدْتُ أَنَا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا!»^(١)
نَعَجَّبَ الصَّحَابَةُ الَّذِينَ يَحِيطُونَ بِهِ، وَفِي اعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُمْ إِخْوَةٌ
لَهُ، فَقَالُوا: أَوْلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:
«أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَاتِي الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ».

إن ملامح وجهك، ونبرات صوتك، وجمال أحاديثك: مما
كان النبي ﷺ يتمنى أن لو رآها، وسمعها، وعاش معها.

هناك انكسارٌ ما في قلب الرجل النبيل، انكسارٌ شوقي،
وحنينٍ خاص لا يمكن التعبير عنه باللغة، ولكن زفرات
الشوق هي من تعبر عنه: «وَدِدْنَا أَنَا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا».

تحدث ذات شوقٍ وشيءٍ أقدس من الدموع بلوح في
أحرفه: «مَنْ أَشَدُّ أَمْنِي لِي حُبًّا: نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ
أَحَدُهُمْ لَوْ رَأَى بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ»^(٢).

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

هل خطرَ ببالك أن هذا النبيَّ المهمومَ بدعوته، والمشغول
بأحداثِ زمنه الموار، والمنصرف لتدبير شؤون دولته: سيعبرُ
يومًا ما عن شوقِهِ إليك؟

نعم شوقُهُ إليك أنت أيها القارئ!

لقد كان النبي مشتاقًا إليك، حَدِّثَا عليك، يتمنى أن يراك،
وأن يجلس معك، وأن يحدثك حديثًا مليئًا بالحب.



أقوى من النسيان

«استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة
على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة
فارتاع لذلك»

عائشة بنت أبي بكر

السَّخَرُ مِنَ النَّبِيِّ

بِأَمْرِ النَّبِيِّ

أَقْوَى مِنَ النِّسيَانِ

الحب لا يكتمل إلا بالوفاء، كثيرون هم الذين يُحِبُّون،
وقليل مَنْ يحتفظ بهذا الحب، ويحمي حماه، وَيَسْقِيهِ نُبْلًا
ومروءةً ووفاءً.

كان ﷺ محبًا، ولكن لا يمكن أن يُحِبَّ، ثم يَنْسَى حُبَّه
بسهولة، فإن كان الحبُّ هو الحلقة الأولى من سلسلة المشاعر،
فإن الوفاء هو الحلقة الأخيرة، والأبدية من هذه السلسلة.

❧ أَوَّلًا وَثَانِيًا وَثَالِثًا ❧

يَحْدُثُ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ؓ وَعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؓ مَا
يَحْدُثُ بَيْنَ الْأَصْحَابِ، مُلَاحَاةً، أَوْ مَا تُسَمِّيهِ نَحْنُ (مُشْكَلَةً)،
تَجْعَلُ عُمَرَ يَذْهَبُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيَشْكُرَ أَبَا بَكْرٍ، فَعِنْدَمَا جَاءَ
أَبُو بَكْرٍ رَأَى أَمَارَاتِ الْغَضَبِ عَلَى وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ فَخَافَ عَلَى
صَاحِبِهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمُ! فَاعْتَرَفَ أَبُو
بَكْرٍ بِأَنَّ الْحَقَّ مَعَ عُمَرَ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، فَذَعَّنَا نَنْظُرَ مَاذَا فَعَلَ
الْوَفَاءُ.

لقد تزايد شعور الغضب في نفس النبي ﷺ، وأرسل خطاباً
يَسْمَعُهُ الجميع، وَيَفْهَمُهُ الجميع: عمر وغير عمر - رضوان الله
عنه أجمعين - فقال: «هل أنتم تاركون لي صاحبي؟»^(١).

هذا أقرب الناس إلى قلبي، هذا الذي استأثرته بحبي
وشوقي وحنيني، هذا الذي كنتُ أمشي في أزقة مكّة، رجلاً
تُطارِدني الأنظمة، كل مَنْ يقترب مني يَغْدُر مطلوباً، أو
محكوماً عليه بالإعدام، أو بالسجن، أو بتشويه السمعة،
فابتعد لذلك عني الأقربون، ولكنّ أبا بكر في تلك الأثناء،
وفي تلك الظروف الحالكة اقترب مني، وأبى أن يَنْزِعَ يده من
يدي، مُتَحَمِّلاً سُخْرِيَةَ أبي جهل، ولسان أبي لُهب، وتسلّط
أمية بن خلف، ومُضايقة عُتْبة بن ربيعة.

«هل أنتم تاركون لي صاحبي؟»

صَدَّقَنِي حين كَذَّبَنِي النَّاسُ، وآوَانِي حين طَرَدَنِي النَّاسُ..

لم يَنْسَ النبي ﷺ بعد سنوات وسنوات تلك القدم التي
أدخلها أبو بكر يوم الهجرة في جُحْرِ العقرب، حتى يمنع
العقرب أن تصل إلى النبي ﷺ! لم يَنْسَ أيام مكّة الساخنة

(١) رواه البخاري.

جَدًّا، وَكَيْفَ أَنْ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يَقِفُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَيَاطِ السَّخَرَةِ
الْقَرَشِيَّةِ!

فِيُجِيبُ عَنْهُ، وَيُدَافِعُ عَنْهُ، وَيَقُولُ بِكُلِّ شَمُوخٍ: إِنَّ قَالَهَا
فَقَدْ صَدَّقَ.

لَمْ يَنْسَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ التَّارِيخَ الْأَبْيَضَ النَّاصِعَ؛ لِذَلِكَ فَلَمْ
يَنَاقِلْ حَبِيبَاتِ الْخِلَافِ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ، بَلْ دَعَا عَمْرٍو دَعَا
جَمِيعِ الصَّحَابَةِ لِلنَّظَرِ إِلَى تَارِيخِ الْأَشْخَاصِ، وَسَابِقَةِ الْأَفْوَامِ،
وَأَلَّا يَنْسُوا الْحُبَّ بَيْنَهُمْ.

مَاذَا تُعْنِي فِي هَذَا السِّيَاقِ مُشْكِلَةُ عَابِرَةٍ يَا عَمْرٍو، تَكُونُ
بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَبِي بَكْرٍ؟ أَنْسَيْتَ أَبَا بَكْرٍ؟ أَنْسَيْتَ مَنْ هُوَ أَبُو بَكْرٍ؟
أَنْسَيْتَ السَّنَوَاتَ الَّتِي لَمْ يَكُنْ فِي سِجْلِ الْإِسْلَامِ غَيْرَ أَبِي بَكْرٍ؟
إِذَنْ فَلْتَحْتَرِقْ جَمِيعَ الْمَشَاكِلِ، وَلْتَهْتُمْ جَمِيعَ الْقَضَايَا، وَيَبْقَى
أَبُو بَكْرٍ أَوَّلًا.. وَثَانِيًا.. وَثَلَاثًا.

﴿ عَرَفْنَا الْحَزْنَ ﴾

وَيُظْهِرُ الْوَفَاءَ أَيْضًا عِنْدَ لَحْظَاتِ الْوَدَاعِ الْأَخْبَرَةِ، لَمَّا يُفَارِقُ
الصَّدِيقَ صَدِيقَهُ، وَيَنْخَلَعُ الْمَحَبُّ عَنْ جِزْءٍ مِنْ رُوحِهِ، عِنْدَمَا
يَتَبَيَّنُ أَنْ لَا لِقَاءَ سَيَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَبِيبِهِ.

تقول عائشة رضي الله عنها: لما جاءت وفاة جعفر عرفنا الحزن في وجه النبي ﷺ ^(١).

جعفر ابن عم النبي ﷺ، والذي كانت فرحة النبي بعودته من الحبشة مساوية، أو مقاربة لفرحه بفتح خيبر، فكيف سيمرُّ نبأ وفاته على قلب النبي ﷺ، وكيف سيستطيع أن يتجاوز الحُطْب بلا شيء من الدموع، وشيء من الحزن، وشيء من الشوق المُضْض؟

❦ سفح الجبل

وهذا حمزة، ذلك الأسد الذي أسلم قبات ضعفاء المسلمين بعد إسلامه في مَنعة وقوَّة، كيف للوحي أن يُعبِّر عن لحظات فراقه؟

كان يمشي بين قتلى أحد، ونزيف في أعرق نقطة من فؤاده يعصف به، فرأى من بين الجموع حبيبَه حمزة، فبدأت دموعه تشقُّ طريقها بصمت، وقدماه تتجهان صوبَ صديق الطفولة، فلما وقف أمام ذلك الجسد الطاهر، ورأى ما فعله وحشيٌّ بجثَّة حمزة: شهق.

(١) رواه أحمد، وصححه شعيب الأرنؤوط.

لم يستطع أن يكون هادئاً ﷺ في مقابل ما تفعله النفوس
الموحنة بأجل ما في الكون من نبل.

وفي طريق العودة من المعركة، ما إن دخل النبي ﷺ المدينة
حتى سمع نساء الأنصار يندبن ويكيبن هلكاهن، فتذكر
حمزة، تذكر الدم والقرابة، تذكر التاريخ الناصع، والذكريات
الشائخة، تذكر صورته الأجش، تذكر شجاعته وإقدامه، تذكر
الدفء الذي يشعر به، إذ كان بقربه، ولا أحد يبكي عليه!
وكان قدراً عظيماً من الحسرة، أو كأنها عاصفة حزن نبيل
عصفت بنفسه عندما قال: «لكن حمزة لا بواكي له!»^(١)

حتى في البكاء يظهر وفاء هذا النبيل العظيم.

وتمر الأيام والليالي، فتظهر في محبلة النبي ﷺ تلك الأوجه
المشرقة، أوجه أولئك الذين استشهدوا عند جبل أحد، وجه
حمزة ومن معه من رفاق الأمس، فيقول بحسرة لا تُذبلها الأيام:
«أما والله لوِذْتُ أَنِّي غُوِذْتُ مع أصحابِ (سَفْحِ) الجبل»^(٢)

(١) رواه أحمد، وصححه شاكر

(٢) رواه أحمد، وحسنه شعب، ونص الحديث «نُحِصَ الجبل» وقد أثبت بالمعنى
الذي ذكره العلماء، لبهمة الفارئ.

يَتَمَنَّى أَنَّهُ قَضَى نَحْبَهُ مَعَ أَحِبَّابِهِ، يَتَمَنَّى أَنَّهُ مَاتَ مَعَ حِمْرَةٍ.

❧ اللهم هالة

الفراق في الحياة حتم لا بدَّ منه، وقد فارق النبي ﷺ أحبَّ الناس إليه، خديجة بنت خويلد ؓ تلك الرائعة التي ضحَّت من أجل حبيبها، ونصرته بهاها، وبَعقلها، وبِحكمتها، وكانت معه في أحلك الظروف.

ليست المشكلة في الفقد، المشكلة تكمن فيما بعد الفقد! عندما تندمل الجروح، وتنسى الروح شيئًا من التفاصيل، ثم فجأة وبلا مَفْذَمَات يعود ذلك الراحل بتفاصيله، يعود بصوته، وبإحساسك تجاهه، هنا لا تسأل عن الرَّوْع الذي بَدَمَكَ.

جاءت هالة بنت خويلد أخت خديجة ؓ إلى المدينة، والنبي ﷺ قد شَغَلته الدولة التي أرسى دعائمها، والأحداث التي خاض غمارها، والمعارك التي فاد كتابها عن أن يتفقد خديجة في حُلُجَات نفسه، لقد خَفَّتْ شيء من حِدَّة الذكري.. وفجأة تأتي هالة، وتستأذن عليه، فيسمع صوته، تقول عائشة ؓ: «استأذنت هالة بنتُ خُوَيْلِد أخت خديجة على رسول

الله ﷻ، فعرف استئذان خديجة (تذكر مخارج حروفها.. وتذكر الأيام) فارتاع لذلك، فقال: «اللهم هالة»^(١) سأل الله أن يكون الصوت صوت هالة أخت خديجة! يريد أن يُرمم شيئاً من الذكريات في نفسه، يُريد أن يُكرم أخت حبيبته، وأن يُعيد بشيء من الحديث معها شيئاً من الماضي الذي ذهب مع خديجة.

إنها قطعة وفاء نادرة، ونُحفة أخاذة لأصالة المعدن، والتي جعلت هذا النبيل يرتاع لصوت امرأة ذكّرتَه دفء الأيام الأولى.

❦ نهش الرمّاح

ومن صور وفائه ﷺ أنه لم يسمح للنسيان أن يمحّو أوجه أولئك الذين أحاطوه بحبهم، واتباعهم، وجاهدوا معه، ودافعوا عنه.

أولئك الذين تُسفيهم بالصحابة، والذين بانّت أهم صفاتهم أنّهم صحبوا الرجل النبيل، وكانوا معه في منشطهم

(١) أصله في الصحيحين.

وَمَكَرَهُمْ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعَزَّ اللَّهُ بِهِمْ دِينَهُ، وَأَعْلَى بِهِمْ كَلِمَتَهُ،
فَلَمْ يَنْسَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ، وَلَمْ يَتْرُكْهُمْ لِلتَّارِيخِ لِيَفْعَلَ بِهِمْ وَبِسَيْرِهِمْ
مَا يَشَاءُ، بَلْ شَدَّدَ عَلَى فَضْلِهِمْ، وَأَحْقَبَتْهُمْ لِلْحُبِّ وَالْاحْتِرَامِ.
وَكَأَنَّهُ عِلْمُ ﷺ بِتَعْلِيمِ اللَّهِ لَهُ أَنَّ نَابِتَةَ كَاذِبَةَ خَاطِئَةَ مَسَاتِي فِي
هَذِهِ الْأَزْمَنَةِ وَنُسْبُ مُعَاوِيَةَ، وَتُقُلُّلُ مِنْ قَدْرِ خَالِدٍ، وَتَنْهَمُ عَائِشَةَ
فِي عِرْضِهَا، وَعَمَرُ فِي عَدْلِهِ، وَأَبَا هُرَيْرَةَ فِي دِينِهِ! عَلَى صَحَابَةِ
النَّبِيِّ ﷺ رِضْوَانُ اللَّهِ، وَعَلَى هَؤُلَاءِ مَا يَسْتَحِقُّونَ.

يقول الواقفي في صحابته: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي»^(١)

أَلَا تَكْفِي الرِّمَاحَ الَّتِي نَهَّتْ أَجْسَادَهُمْ مِنْ أَجْلِ لَا إِلَهَ
إِلَّا اللَّهُ؟ أَلَا تَكْفِي الْهَجْرَةَ الَّتِي بَرَّحَتْ بِأَفْئِدَتِهِمْ مِنْ أَجْلِ هَذَا
الَّذِينَ.. نَمْ يَأْتِي مُتَكَبِّرٌ عَلَى أُرَيْكَتِهِ يَكْذِبُ عَلَى كَاتِبِ الْوَحْيِ؟
أَوْ عَلَى الصَّدِيقَةِ بِنْتِ الصَّدِيقِ؟

ثم يقول -وكأنه أراد أن يَقْشَعَ عَنَامَةُ الْغَبَاءِ عَنْ بَعْضِ
الرُّؤُوسِ-: «اخْفَظُونِي فِي أَصْحَابِي»^(٢).

إِذْ فَقَدْ جَعَلَ الْوَاقِفِيُّ حَفَظَهُمْ مِنْ حَفْظِهِ، وَإِجْلَاهُمْ مِنْ

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(٢) رَوَاهُ ابْنُ عَسَاكِرَ.

إجلاله؛ إذ كيف ينقل لك الذين من لا تحله، ويأتيك بهدي
السي وسيرته وسنته من تزعم أنت أنه كذاب!

ويقول ذات وفاء تادر، وكأنه يقف بين جموع الشَّاميين
أولئك الذين لم يتطهروا من النفاق، وبين صحابتهم الكرام:
«دعوا لي أصحابي».

اتركوهم لي، فانا أولى الناس بهم، وانصرفوا أنتم لغشكم،
وكذبكم، وفجوركم.

رَبِّ وَقَاءَ لِلشَّاهِدَةِ

وفاءه ﷺ لم يكن لأصحابه، وأحبابه، وأولئك الذين
جمعتهم معه أجل الذكريات، وأحلى الأيام.

بل حتى أولئك الذين كذبوا بدينه، وردُّوا دعوته، ممَّن كانت
لهم موافق رُجولية بَحْته، فقد حفظ عهدهم، ووفَّى بتلك
المواقف.

فها هو واقف إزاء أسرى بدر، أولئك الذين خرجوا من
مكة لحرب الدين، وإحراق الرسالة، وكسر راية الحق، فيتذكَّر

المطعم بن عديّ ذلك الرجل الذي أجاره عندما عاد من
الطائف وحيداً طريداً، ذلك الرجل الذي سجّل موقفاً شهياً
ضدّ قومه الظلمة أيام الشعب، ومزّقت يده صحيفة الجور،
تذكره وهو ينظر إلى أولئك الأوباش ثم قال لابنه الجيّب: «لو
كان أبوك حياً ثم كلّمني في هؤلاء لأطلقتهم له».

إنّه وفاء للشهامة، وتذكّر لعهد الرجولة، وعدم إنكار
لجميل رجل مات على الكفر!

والآن أخبرني هل في سيرة هذا العظيم مُسَعٍ لغير الشهامة؟
وهل هناك جزء في شخصيته لم يتضمّن بعطر وفائه عليه
الصلاة والسلام؟ وهل هناك نفس في هذا الوجود، يستطيع
أن يفعل بها الوفاء ما فعل في نفس أعظم إنسان، وأنقى إنسان،
وأنبل إنسان؟ عليه من الله أزكى الصلاة والسلام..



احمرار البأس

كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَاسُ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ:
اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ

علي بن أبي طالب عليه السلام

احمرار البأس

كان النبي ﷺ عنوان الشجاعة والإقدام، بل لقد كانت عيناه فقط تدرسان الشجاعة لأشواوس الصحابة، وأكابر المسلمين.

حتى إن صناديد الكفر كانوا يتحامون ويتحاشون أن تطول مدة مشاكسته؛ لأنهم يعلمون عن أي أسد سيُسفر ذلك الاسنفراز، وعن أي عَضْب سينجلي غبار الموقف!

فهو شجاع الكلمة، شجاع الرأي، شجاع الموقف، وشجاع المعركة.. بل هو شجاع في حلمه، وفي تواضعه، وفي كل أخلاقه؛ يقول عنه خالقه سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

فمن أي باب تدلّف إلى سيرته عليه الصلاة والسلام، ستلقى شجاعته وكأنها السمة البارزة، والتوقيع النهائي على مواقفه التي صنعت سيرته العظمى، وأيامه المملأى بالذكرات.

وَيُدْخِلُكَ النَّارَ

مِلْنِ قَلْبُ النَّبِيِّ ﷺ بِالْبَسَالَةِ؛ فَلَا تَرَوْعُهُ الْأَحْدَاثُ الْجَسَامِ،
وَلَا تُنْهِنُهُ الْمَوَاقِفُ الصَّعْبَةُ، بَلْ نَرَاهُ فِي كُلِّ أَحْيَانِهِ جَبَلًا شَانِخًا
لَا تُحْسُ ذَرَاهُ بِسُوءٍ.

كَانَ يَوْمًا يَسِيرُ فِي مَكَّةَ، فَتَلْقَاهُ أَبِي بْنُ خَلْفٍ، وَهُوَ أَحَدُ
فِرَاعَةِ الْكُفْرِ، وَمِنْ يُهَابِ جَانِيهِمْ كَثِيرًا.

مَشْكَلَةٌ إِنْ كَانَ تَخْصُمُكَ رَجُلًا هُوَ أَحَدُ مَقَرَّحَاتِ الْكُفْرِ،
ثُمَّ نَفَذَتْهُ الدَّنَاءُ بِشَكْلِ عَشْوَانِي!

تَلْقَاهُ هَذَا الرَّجُلُ ذُو الْأَخْلَاقِ الشَّرِسَةِ بَعْظَمِ حَائِلٍ، فَفَتْنُهُ بَيْنَ
يَدَيْهِ، ثُمَّ سَأَلَهُ بِكَيْفٍ وَغَطْرَسَةٍ: أَتَرَى رَبِّكَ يُجِيبِي هَذَا بَعْدَ مَا قَدْ أَرَمَ؟

شَخَّصَتْ الْأَبْصَارُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَتَنْتَظَرُ كَيْفَ يَجِيبُ هَذَا
الشَّيْخَ الْمَطَاعَ أَبِي بَنٍ خَلْفٍ، فَإِذَا بِهِ يَقُولُ، وَبِلاَ اِهْتِمَامٍ لِمَكَانَتِهِ
فِي قَوْمِهِ: «نَعَمْ! وَبِيعْتُكَ، وَيُدْخِلُكَ النَّارَ».

لَقَدْ دَاسَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَلِمَتِهِ تِلْكَ عِزَّيْنِ الْكُفْرِ، وَمَرَّغَهُ فِي
الطَّبَنِ كَمَا يَجِبُ، دُونَ أَنْ يَضْرِبَ حِسَابًا لِهَذَا الْمُنْكَبَرِ الَّذِي لَا
يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ.

يَتَحَدَّثُ أَهْلُ السَّيْرِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ يَطُوفُ
بِالْبَيْتِ، فَابْتَدَرَهُ الْمُسْتَهْزِئُونَ؛ هَذَا يَغْمِزُ، وَذَاكَ يُقَهِّفُهُ، وَالنَّبِيُّ
ﷺ كَعَادَتِهِ يَحْلُمُ بِهِمْ، وَيَتَغَاضَى، وَكَأَنَّهُ مَا رَأَى وَمَا سَمِعَ،
وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّ الْأَمْرَ تَجَاوَزَ حَدَّهُ، وَبَاتَ التَّأَخُّرُ فِي الرَّدِّ يُعْطِي
انْطِبَاعًا بِالْخَوْفِ أَكْثَرَ مِنْهُ بِالْحِلْمِ، فَتَوَقَّفَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ
جَمْعِهِمْ، فَصَمَتُوا لَوْقُوفِهِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ ثَلَاثَ كَلِمَاتٍ
طَائَتْ مَعَهَا قَهْقِهَاتُهُمْ، قَالَ: «لَقَدْ جِئْتُمْ بِالذَّبْحِ!»^(١).

فَفَطَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ جَعَلَتْهُمْ يَقُومُونَ وَيَتَوَسَّلُونَ إِلَيْهِ أَنْ
يَنْجَاوِزَ عَنْهُمْ، فَمَا عَهْدُوهُ إِلَّا الْحَلِيمَ الرَّشِيدَ.

لَقَدْ عَلِمُوا جَيِّدًا أَنَّهُ لَا يَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ، وَأَنَّهُ إِنْ قَالَ: «لَقَدْ
جِئْتُمْ بِالذَّبْحِ»، فَإِنَّ الذَّبْحَ هُوَ مَصِيرُهُمْ، وَهُوَ مَا حَدَّثَ
بِالْفِعْلِ يَوْمَ بَدْرٍ!

يَعْلَمُنَا النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ أَنَّ الشَّجَاعَةَ لَيْسَتْ كَلَامًا
طَائِسًا تُلْقِيهِ عَلَى عَوَاهِنِهِ، وَتَهْدِيدًا أَجُوفًا لَا طَائِلَ وَرَاءَهُ..
إِنَّ الشَّجَاعَةَ هِيَ أَنْ تَمْلِكَ نَفْسَكَ مَا اسْتَطَعْتَ، ثُمَّ إِنْ أَبَى

(١) ابن حبان في صحيحه.

خَصُّكَ إِلَّا اسْتِصَالَ بَاطِلُهُ، وَجَاءَ وَقْتُ الْكَلَامِ: فَلَا تَحْدُثْ إِلَّا بِحَدِيثٍ يَعْلَمُ صَاحِبُكَ أَنَّكَ تَعْنِي كُلَّ حَرْفٍ مِنْهُ، وَأَنَّكَ لَا تَهْدُدُ بِقَدْرِ كَوْنِكَ تَسْلُمُهُ خَطَّتَكَ لَا اسْتِصَالَ شَأْنَهُ، وَتُعْطِيهِ فِكْرَةً وَاضِحَةً عَمَّا سَتَفْعَلُهُ مَعَهُ فِي الْغَدِ.

٤٨ لَمْ تَرَاْعُوا..

لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ يَخْتَبِي خَلْفَ الْجُمُوعِ، وَيَقِفُ مِنْ وَوَاءِ الْفَرَسَانِ، بَلْ كَانَ الْمُتَقَدِّمَ دَائِمًا..

يَحْدُثُنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ (رضي الله عنه): أَنَّ صَوْتًا غَرِيبًا جَاءَ مِنْ إِحْدَى جِهَاتِ الْمَدِينَةِ، وَقَدْ كَانَتْ الْمَدِينَةُ نَفْطَةً النُّورِ فِي بَحْرِ مِنَ الْقَبَائِلِ الْمُشْرَكَةِ، وَجُمُوعٍ مِنَ الْأَعْرَابِ الْغِلَاطِ، وَكَانَتْ التَّهْدِيدَاتُ تَأْتِيهَا مِنْ مَكَّةَ، وَمِنَ الطَّائِفِ، وَمِنَ الرُّومِ، وَمِنَ الْفُرْسِ.. وَقَدْ كَانَتْ حَيَاةُ الْمَدِينَةِ حَيَاةَ تَعَبَةٍ وَجَاهِزِيَّةٍ لَا يُبْطِلُهَا مَدَاهِمُهَا قَدْ تَغْزُوا أَطْرَافَهَا.

فَلَعَلَّ النَّاسَ وَالْحَالَ كَمَا ذَكَرْنَا ظَنُّوا ذَلِكَ الصَّوْتَ صَوْتَ بَعْضِ فَرَسَانِ الْعَدُوِّ الْمُقْبِلِينَ عَلَى الْمَدِينَةِ غَزَاةً مُعْتَدِينَ، فَقَزَعَ مَنْ قَزَعٌ، وَآخَذَ الْفَرَسَانُ يَهْتَفُ بِبَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، وَيَسْتَحِثُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.. وَقَدْ سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ مَا سَمِعَ النَّاسُ، فَلَمْ

ينتظر كما انتظر الناس، بل هُرعَ إلى فرسٍ عُريٍّ بلا سُرَجٍ لأبي
طلحة، وانطلقَ كالعاصفة جهة الصوت وحده، يستكشفُ
ويبحث عن أولئك المتسللين ببسالة الفارس، وشجاعة
القلب الذي لا يَنْبِضُ بالخوف.

لقد كان قلبًا شجاعًا، ونفسًا تعصف، وشرًّا يتقَد...

وفي هذه الأثناء، تجمَّعَ عددٌ لا بأس به من فرسان المدينة،
وانطلقوا جهة الصوت، فإذا النبي ﷺ يُقبل عليهم بوجهه
الوَّضاح، وتغرَّه التَّبَسُّم، وقد أنهى مهمَّة الاستكشاف وهو
يقول: «لم تُراعُوا.. لم تُراعُوا!..»^(١)

لا خوفَ على المدينة ومحمَّد ﷺ فيها، حتى فرسانُ المدينة
الأساوسُ يحتاجون إليه عليه الصلاة والسلام ليكون في
مقدِّمتهم في أمور الهَلَجِ والرعب.

إن خُصَلاتِ شِعْرِهِ المتناثرة وهو على فرسٍ أبي طلحة
تُوحى للناظر من بعيد أن البطولة بدأ موسمها، وأن شيئًا
من النفوقِ البشري الذي لا تُطيقه إلا نفسٌ صنعها الله له،

(١) رواه البخاري ومسلم.

واصطفاهما لتبليغ رسالته: قد ظهرَ على الكوكب، وأخذ يشعُّ
بإشعاع لم يفهمه الكوكبُ بعدُ!

❧ احمرارُ البأس

كان عليُّ بن أبي طالب (ع) من أعظمِ مَنْ عُرِفَ بالشجاعة
والإقدام، وكان أحدَ قرسانِ يوم بدرِ الثلاثة، الذين لاقُوا
فرسانَ قريشِ الأقوياء، ففلقَ هامةَ صاحبه، وأرداه قتيلاً،
وهو بعدُ شابٌّ طرِبٌ، وفتىٌ يخوض في فتوته.

يقول هذا السيفُ الصَّلْتُ: «كُنَّا إذا احمرَّ البأسُ، ولقي
القومُ القومَ: اتَّقِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(١).

أَتَحْيَلَتِ البأسُ كيفَ يحمرُّ؟

وما هو الذي يجعله أحمرَّ اللون؟

إنها الدماءُ التي تتطاير من الأعناق، والأشلاء التي تتبعثر
في الأجواء...

عند تلك اللحظاتِ الحاسمة، تغدو شجاعةُ عليِّ بن أبي
طالب، وطلحة، والزُّبير، وحمزة، وأبي دُجَّانة: شيئاً متواضعاً

(١) رواه أحمد، وصححه شاكر.

عند شجاعة النبي ﷺ ..

يقول: اتَّقِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ أي: جعلناه بيننا وبين الموت...
بيننا وبين صليلِ السيوف!

لقد كان عليه الصلاة والسلام الشجاعة في وقت كانت
الشجاعة صنماً يكاد يُعبد من دون الله؛ فنكس رأس الشجاعة
لله، وجعلها راهباً متبتلاً في محراب التواضع للخالق العظيم.

❧ الآن حمي الوطيس

ولا تتجلى الشجاعة إلا في مواقف الخوف العظيم،
وأشدّها بأساً لهما تشتجرُ الرماح، وتنهلُ السيوفُ من الدم،
عندها تظهر معادنُ القلوب، وأصنافُ البسالة، ولا يصمدُ في
مثل هذه المواطن إلا من ختمته الشجاعة بخاتمها ذي النقشِ
الدمويِّ المَهول!

في غزوة حُنين التي ذكرها الله في القرآن الكريم، فقال تعالى:
﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ
شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ
مُذِرِينَ﴾، كان عددُ جيشِ النبي ﷺ اثني عشر ألفاً.. وهو
عددٌ لم يجتمع للجيش الإسلامي قبل ذلك، مما حدا ببعض

المسلمين أن يقولوا: لن نُهْزَمَ اليوم من قلة!"

وما إن التحمَّتِ الصفوف، حتى ظهرتُ سيوفُ هوازن،
ورماحُ ثقيفٍ بلموت الزُّؤام؛ فطاشت الصفوفُ، وعصَّتِ
الأوديةُ بالهاريين!

حتى شجعانُ الصحابة، وأولو الحماسة منهم والحفظة،
انتشروا وولّوا كما وصفهم اللهُ تعالى: ﴿مُذِرِينَ﴾، والله - في
تقدير ذلك الملحِ المفاجئ على قلوب كالحديد بأسًا - حكمة
بالغة!

فأين كان النبي ﷺ في هذا السياق المخيف؟

يقول أصحابُ السير: كان يصرُخُ وهو في حومة الموت
ووسطُ بُحَيحةِ المعركة: هلمُّوا إليَّ أيها الناس، أنا رسول الله،
أنا محمد بن عبد الله!

لم يعطِ الموتُ ظَهْرَهُ عليه الصلاة والسلام، بل أقبل إليه
بصدره الممتلئ ثقةً بما عند الله، وماذا يعني الموتُ عند رجلٍ
إحدى أمانيه الموت؟!

«والذي نفسي بيده، وِدِدْتُ أَنِي أَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلَ»

(١) قصة غزوة حنين بتفاصيلها في مسلم، وغيره.

ثم أحياء ثم أقتل، ثم أحياء ثم أقتل، ثم أحياء
ثم أقتل^(١)

ثم أفل
فصرخ العباس عليه السلام: «أين أصحاب الشجرة؟ أين الأنصار؟
أين بنو الحارث بن الخزرج...»، فانتفضت الحماصة في قلوبهم
من جديد، وعادوا إلى قلب المعركة والجنّة تترامى لهم، يقول
العباس: «والله، لكان عطفتهم لما سمعوا صوتي عطفة البقير
على أولادها»، وأخذوا يهتفون: يا لبيك.. يا لبيك! فلا ثقيف
ولا هوازن ولا الموت يستطيع أن يتغلب على الأشياء التي
يشعر بها أصحاب محمد بجوار محمد.

فلما رأى النبي ﷺ المعركة احتدمت، والنَّعْ يَعِيدُ تشكيل
صورة الموقف، قال: «الآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ»، وابتدأ بقتال
ليس كالقتال، وباستبسال ليس كالاستبسال، وبضَرْبٍ يَفْلِقُ
الهام، وأخذت تنداح أرنأُلُ أصحابِ تَيْعَةِ الرضوان لتنهِي
أسطورة الشرك، وسقطت أكذوبةُ الجيش الذي لا يُقهر...
وهرب الأنذالُ إلى نخلة، والطائف، وأوطاس، فتبَّعهم النبي
بسرائه، وأجهز على تلك الوجوه التي عليها غَبْرَةٌ، ثَرَقَهَا
قَتْرَةٌ!

إنه محمدٌ، إنه الرجلُ الأشجعُ؛ فلا تتحدَّثْ عن الشجاعة
وأنت لا تنوي أن تذكره.. ولا تحُضْ في البسالة وفي نيتك أن
تُغفلَ مغازيه: بدر وأحد والمخندق وفتح مكة وحنين...



الجزء المقدس

ما يُسهرُك يا رسول الله؟

صحابه جليل

الرجاء النبوي
على خير النعم

الجزء المقدس

عندما تقرأ عن شجاع ما، أرهب أعداءه، وأسكن القلق في أحلام خصومه، وكيف أن طرقات الخوف لا تزور قلبه، وأن خفقات الذعر ليست ضمن قاموسه، عند ذلك يصعب عليك أن تتمثله رحيماً، يعتصر فؤاده ألماً لموت طفل، وتدمع عينه لاحتراق أمل، وتذهب نفسه خسرات على الخصومه.

ولكنك بحاجة لقراءة سيرة النبي محمد ﷺ حتى تلتقي مع هذا الشخص الأوحى الذي جمع أرفع درجات الشجاعة، وأبلى معاني الرحمة في قلبه الشاسع الممتد.

لقد حصر القرآن الكريم، وقصر سبب إرساله ﷺ في الرحمة، وكأنه لم يُخلق من تراب، وإنما خُلق من رحمة، وفي رحمة، وإلى رحمة، يقول الحق عنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ١، ليس رحمة لزوجته وأبنائه وجيرانه، ليس رحمة لصحابته، هو رحمة للعالمين! والعالمون جمع عالم، وكل ما سوى الله عالم.

❧ رُدُّوا لَهَا وَلَدَهَا

يُحَدِّثُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّهُمْ كَانُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي أَحَدِ أَصْفَارِهِ، وَأَنَّهُ ﷺ ذَهَبَ فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ، فَلَقِيَ الصَّحَابَةَ (حُمْرَةً) ^(١).. وَمَعَهَا فَرْخَانِ، يَقُولُ: فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتِ الْحُمْرَةُ، فَجَعَلَتْ تَضْطَرِبُ قَلْقًا وَخَوْفًا عَلَى صِغَارِهَا، فَانْتَصَرَفَ الصَّحَابَةُ فِي تِلْكَ الدَّقَائِقِ إِلَى شَيْءٍ مِنَ اللُّهُو الْبَرِيِّ، أَرَادُوا تَأْمُلَ الْفَرْخَيْنِ الْجَمِيلَيْنِ، وَالْأَنْسَ بِإِمْسَاكِهِمَا، وَسِمَاعِ صَفِيرِهِمَا، وَلَمْ يَكُنْ حَالُ الْأُمِّ الْمَسْكِينَةِ ضَمْنَ اهْتِمَامِهِمْ؛ وَلَكِنَّ نَبِيَّ الرَّحْمَةِ أَقْبَلَ، أَقْبَلَ بِقَلْبِهِ الَّذِي يَتَحَسَّسُ أَدَقَّ تَفَاصِيلِ الْحُزْنِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ حَوْلِهِ، وَكَأَنَّهُ بُعِثَ فِيمَا بُعِثَ لَهُ؛ لِيَمْسَحَ الدَّمُوعَ وَيُسْكِنَ الْآهَاتِ ﷺ فإِذَا بِمَنْظَرِ تِلْكَ الْأُمِّ الْمَفْزُودَةِ عَلَى صِغَارِهَا يَتَصَدَّرُ الْمَشْهَدُ، بَلْ يَجْعَلُهُ لَا يَعْصِي بِأَيِّ مَرَحٍ جَمِيلٍ، أَوْ هُوَ بَرِيءٌ الْقَضِيَّةِ الْآنَ تَتَعَلَّقُ بِقَلْبٍ يَحْتَرِقُ، وَلَا بَدَّ مِنْ سُرْعَةِ التَّدْخُلِ، فَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ بِكُلِّ صَرَامَةٍ: «مَنْ فَجَّعَ هَذِهِ بَوْلَدَهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا».

فَيَسَارِعُ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ إِلَى تَنْفِيزِ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَتَعُودُ

(١) نوع من أنواع الطيور.

المناءة إلى حياة تلك الحُمْرة، فتهدأ نفس النبي الأرحم عليه الصلاة والسلام".

﴿اعْلَمْ أبا مسعود

يعشي النبي ﷺ في سِكَك المدينة، فإذا بصوت ضربة سوط تسَلُّ إلى أذنه!

إنَّه الصحابي الجليل أبو مسعود، يضرب عبدًا له، فتُصيب تلك الضربات رُوح النبي الرحيم ﷺ أكثر من إصابتها لظهر ذلك المملوك المظلوم.. فيقول نبيُّ الرحمة، بقلب يتفطر:

«اعْلَمْ أبا مسعود...».

فلم يتيَّن أبو مسعود الصوت من شدَّة غضبه، فيقترب النبي ﷺ ويكرِّر: اعْلَمْ أبا مسعود..

فيتنفض أبو مسعود للصوت، فإلتفت ويده ما زالت مُلَطَّخة بآلم ضربة الظلم، فإذا بالنبي وراءه يقول:

(١) رواه أبو داود.

«اعْلَمْ أبا مسعود، اللهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ»!

فيسْقُط السوط من كفِّ أبي مسعود، ويدوب الظلم في نفسه، وتحتفظ الكلمات..

فيقول أبو مسعود لملوكه: «اذْهَبْ فَأَنْتَ حُرٌّ لوجه الله».

هكذا يُطفئ أبو مسعود غضب النبي ﷺ أعتق العبد لوجه الله.

فأتى التوقيع النبوي على المشهد: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ، لَلْفَحْتُكَ النَّارَ»^(١).

لو لم تُعتقه، وتَهَبْ له الحرية التي تحولُ بينه وبين أن يُضْرَب ظلماً، لتحولت تلك السباط التي لفحته بها، إلى نيران تَلْفَحُكَ في الآخرة.

لم يأت النبي ﷺ ليعالج أمراض وخُرافات الجاهلية، ثم يدع تلك الأوهام والخُرافات تسكن قلوب أصحابه.. وتجعل نظرتهم للحياة تنسجم بالتسلُّط والتجهُّم، بل كان حريصاً على

أن يُصقل إنسانية مَنْ حوله، ويُعيد تلك الأجزاء المقدَّسة التي سقطت منهم أيام جاهليَّتهم.. يُعيدُها ليُكتمل بهاؤهم، فالإنسان بلا رحمة، شجرة بلا ظل، ولا ثمر، ولا أوراق.

❧ أنين العباس

في طريق العودة من غزوة بدر، وقد رُبط الأسرى بالقيد، وشُدَّ عليهم الوثاق! فتوقَّف الجيش المظفر بقيادة الزعيم الأعظم حتى يناموا.

لاحظ الصحابة الكرام أن نبيَّهم لم يَنم، مع أنَّها ليلة مليئة بالسعادة، ليلة كان صُبَّحها عزًّا للإسلام، فما الذي أسهر النبي ﷺ؟ تجرَّؤا فسألوه، ما يُسهرُكَ يا نبي الله؟ فجاءت الصدمة: "أنينُ العباس".

ما حجم الإنسانية في ذلك القلب الذي أرَّقه أنين أسير في القيد؟ فذهب الصحابة وأزخَّوا من قيد العباس، لينام أرحم الناس.

إنَّها النفس التي لا تَنسى وهي في خضمِّ القوَّة نسايم الرحمة النبيلة، وتَقْدِر على أن تتجهَّم للكفر، وتبتسم في نفس اللحظة

للإيمان، ولذَئِها إمكانيَّة أن تصرُحَ في وجه أبي جهل، ثم
لا تستطيع النوم لأجل أنين العباس.

غابة عسافير

في كل معركة بين جيشين تحترق حديقة أزهار، وروضة
أطفال، وغابة عسافير.. إلا إذا كان المقاتل هو الرجل النبيل!
حتى المعارك يدخلها بنفسية الشهم الذي لا يسمح لقطرة
دم بريئة أن تُثَعَّبَ على سَجَّادة معاركه الفاخرة
«لا تَقْتُلُوا شَيْخًا فانيًا، ولا طفلًا، ولا امرأة..»^(١).

لا تسمحوا للرغبة الجامحة في الانتصار أن تخجِّي نظرات
طفل بريء، لا ذنب له فيها يجري.

لا تسمحوا لأدخنة المعركة أن تَعَبَثَ بتفاصيل وجه
امرأة، فتَعُدُّونها ضمنَ الرجال، وتُنْهوا حياتها بضربة لا
تَلِيقُ بضعف أنثى!

(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

لا تجعلوا الحرب تحرق فيما تحرق شعوركم بضعف ذلك
المن المُنوَكَّى على عُنَاذِهِ، والذي لا قدرة لَدَيْهِ على حمل
سيف، أو رفع رمح، أو ركوب خيل.. وباسم دين الرحمة
نفلونه بعنف!

❧ اذهبى

انهرمت إحدى النساء في معركتها مع الشيطان، فاقرنت
فاحشة الزنا، فأقبلت إلى نبي الرحمة، ويران الذنب تلتع
رُوحها، وأثأت الصمير نكاد تستحيل صراخًا فظبعا:

لقد زَنَيْتُ، فطَهِّرْني يا رسول الله..

ونبي الرحمة يعلم كيف سيكون التطهير، إِنَّهُ رَجَمَ
بالحجارة حتى الموت، ولكنه لا يُريد أن تثبت النُّهْمَةُ، يُريد
من تلك المرأة أن تَسْرَ نفسها، وتوب فيما بينها وبين ربها،
فُيُسَبِّحُ عنها، وكأنه ما سمع شيئًا.

فتأني من الجهة الأخرى، وهي عازمة على إنهاء صوت
العذاب الذي في داخلها: يا رسول الله، لقد زَنَيْتُ فطَهِّرْني.

فينصنع النبي ﷺ النظر إلى مكان بعيد، وكأنه يُتيح لتلك

المرأة المجال أن تهرب، أن تستفيق، أو يعود لها صوابها.
فالتطهير بعني الموت!

فكرّر كلامها: يا رسول الله، لقد زُئِيتُ، وأنا حامل من
الزنا، فطهرني.

فيقبل عليها النبي ﷺ فتُخبره بجُرمِها، فيجعل لها مهلة،
لعلها تُسَرُّ نفسها، وتُخفي جَريرتها، فيقول: اذهبي حتى
تُضمي ما في بطنك.

لقد ظنَّ الرحيم ﷺ أن تسعة أشهر كفيلة بأن تُطفى في تلك
المرأة حُرقتها، وتُخفف من لَوْعتها؛ فتدفن وجهها في الأوجه،
وتتوب فيما بينها وبين ربها.

ولكنها تعود بعد تلك المدة المضروبة! تعود وهي تحمل
وليدها.

فيضرب لها مدة أخرى، ويُطيلها هذه المرة أكثر، فيقول:
اذهبي حتى تُقطميه.

لقد أجلها ستين، لقد أرادت رحمته لتلك الأم المسكينة
أن تعيش بهناء مع ذلك الطفل الصغير، أرادت أن تنسى

تلك المرأة ذنبها (العظيم)، وتبدأ حياتها في ظلال رحمة الله (العظمى)، ولكن شعور تلك المرأة بالذنب كان أقوى من تلك السنوات، وأشد من شعورها بأمومتها، فأتت بعد ستين وقد فطمت وليدها، فأقام النبي ﷺ عليها حد الله.

الأكثر وضوحاً من تأنيب ضميرها الحي، محاولة النبي الرحيم ﷺ أن يسترها برحمته، وأن يُشبع عنها بشعوره الدافئ نجاه ذلك القلب الذي مرّفته المعصية.

والآن، كيف يوصف دين هذا نبيّه بأنّه دين الوحشية؟! وكيف يرسم نبيّ هذا قلبه، وهذه رحمته بأنّه نبيّ أنى بثقافة القتل، والإبادة والدموية؟ إنّ الكذب الصّراح، والظلم الذي تفوّق على كل ظلم.



عندما يكفيك الحصارُ

ما سُئِلَ النبي ﷺ عن شيءٍ قط، فقال: لا!

جابرُ بن عبد الله

الْحَجَّالِ بْنِ

عَلِيٍّ بْنِ أَبِي

عندما يكفيك الحسيرُ

«يا دُنْيَا يا دُنْيَة، غُرِّي غُبْرِي؛ زَاذُكِ حَفِير، وَعُمُرُكِ
قَصِير...!»

هذا ما قاله عليُّ بن أبي طالب (عليه السلام)، أحدُ تلاميذِ النبي ﷺ في
ذمِّ الدنيا، واحتقارِها، وعدمِ الركونِ إليها.
هذا التلميذُ؛ فكيف بالأستاذ؟!

لقد كان الدرسُ الأولُ الذي ألقاه النبي ﷺ تدريسَهُ
لتلاميذه رضوان الله عليهم هو أن يعدُّوا الدنيا مَرًّا لا مَفْرًا،
جسرًا للمعبور، لا حصالةً لجمعِ الحطام، فلا يكثرنوا كثيرًا،
ولا حتى قليلًا، بشظفِ العيش، وصعوبةِ الحياة، وسوءِ
أحوالِ الطفُس، وضمَغِ الناتجِ المحلي، وليشتقوا من كلمة
(الدنيا) شعورًا مناسبًا لها، يجعلها في أنفسهم تحتلُ مكانةً دنيَّةً
منخفضة، لا تستحقُّ مع هذه المكانة أن تكونَ حديثَ الساعة،
ولا مثارَ الرأي العام.

فكانت النتيجةُ: أبا بكرٍ الذي يُشبهُ الآخرةَ أكثرَ من شبههِ
بالدنيا..

وعمر الذي يهتف: اخشَوْشُوا؛ فَإِنَّ النُّعْمَ لَا تَدُومُ!

وعثمانُ شهيد الدار: الذي يغادر الدنيا ويبيدُ المصحف..

وأبا عبيدة: الذي يرى بدايةَ الطاعون في يده، فيدعو الله أن يبارك فيها..

وأبا ذر: الذي يهربُ من الدنيا؛ ليعيشَ وحيداً، ويُعتَ وحيداً..

وبللاً: الذي يزوره الموتُ، فيهتف بشوق: غداً نَلْقَى الأحبةَ، عمداً وحزبته..

وعبد الله بن رَوَاحَة: الذي ما إن يرى أحداً أصدقائه حتى ينسى الدنيا، ويقول له: تعالَ بنا نُؤمِّنُ ساعةً..

❧ وتركهما..

ينام النبي ﷺ ذاتَ يوم على حصيرٍ يابسٍ الأطراف، مهترئ النشج، فيستيقظ، فيرى الصحابةَ الكرام أترَ ذلك الحصر في جنبِ النبي ﷺ، يروْنَ كيف نقَشَ الحصرُ تفاصيلَهُ الناتئةَ على جسدِ الرجلِ النبيل، فيقولُهم ذلك المنظر، تؤلمهم الدنيا التي لم يأخذ منها النبي ﷺ فراشاً وطبناً لينا! وفي أنفسهم صراخٌ

يقول: ما قيمة دُنْيَا لم يَنْلَ فيها أعظمُ إنسانٍ سريراً ينامُ عليه
بهنا؟!

يقولون له بلهجة المحبِّ: يا رسول الله، لو اتَّخَذْنَا لك وِطَاءً؟
فيقول النبي ﷺ بصوتٍ يقتلع جذورَ الدنيا، وَيَسْحَقُ
أجزاءها العلويَّة: «ما لي وللدنيا؟»، وكأنَّ الصَّدَى يكرِّرُ تلك
الكلمة الجبَّارة:

ما لي وللدُّنيا.. ما لي وللدُّنيا.. ما لي وللدُّنيا؟!

فتتطفئ الدنيا فجأةً..

ثم يكمل: «ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرة،
ثم راح وتركها»^(١).

أخذت تلك الكلمة: «ما لي وللدنيا» تنداح في الأجواء،
وتتقاذفها الأصدااء، وتتوغَّل في تلك النفوس التي كانت
تحاول استيعابَ مقدار العظْمة التي تنطوي عليها تلك النفسُ
الزكيَّة.

(١) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

الدنيا ليست حديقة غناء، ولا شجرة في هذه الحديقة،
الدنيا ظل شجرة! إنها أقل من أن تكون شجرة! إنها الظل
الزائل، إنها البقية الباردة التي في الكأس، إنها الأشياء التي
تختفي بمجرد أن نحدق فيها.

ثم استمع إلى «راح وتركها»، ومُدَّ قليلاً في «تركها»، اجعل
نهايتها خفوتاً يلائم خفوت الدنيا، وتلاشيها في نفس الرجل
النبيل عليه الصلاة والسلام.

❧ فقهه

بِعَرَضِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الدُّنْيَا كَبَدِيلٍ يَرُونَهُ مَنَاسِبًا
لِلتَّخَلِّيِ عَنِ الدِّينِ!

هَمْ لَا يَعْلَمُونَ مَقْدَارَ الْفَقْهَةِ الَّتِي تَفْجَرُ فِي ذِهْنِ الْمُرُوءَةِ
تِلْكَ اللَّحَظَاتِ!

كَانَ عُمُّ أَبُو طَالِبٍ حَاضِرًا ذَلِكَ الْعَرَضَ السَّخِيفَ!

وَأَخَذَ أَبُو طَالِبٍ بِتَنْظَرٍ أَنْ يَهْدِمَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الْعَرَضَ، وَأَنْ
يَمْرُقَ وَجْهُ أَبِي جَهْلٍ فِي التَّرَابِ، فَجَاءَ الرَّدُّ الَّذِي يَصْعَبُ عَلَى
التَّارِيخِ أَنْ يَنْسَاهُ: وَاللَّهِ، لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ

في يسألي على أن أترك هذا الأمر، ما تركته، أو أهلك دونه^(١).
نوقفت العروض، وطاشت أوراق الباطل..

وكان أبا طالب بعدما سمع هذه القذيفة التفت إلى أبي جهل
وقال بنظراته: إن الذي كبره في عيني: صغر الدنيا في عينه..

هذه الدنيا التي أجلب لأجلها أبو جهل بخيله ورجله
وكذبه الرخيص لا تصلح أن تكون كرة تُركل بالأقدام في
مذهب الرجل النبل.

ثم خرج أبو جهل بأكمله في التراب، ثم انصرف مكللاً
بخوري، وبني الرجل النبل هازناً بالكفر، كما ينبغي للشبل أن
يعمل!

❦ جناح بعوضة

يقف النبي ﷺ ذات يوم بإزاء الدنيا، والصحابة خلفه
بستظرون تعليقه، فيبتهتهم التعليق، ويذهلون به: «الدنيا
ملعونة»..

(١) سدها صحيف، والعلماء لا يشددون في روايات السير والتاريخ كثيراً.

مكذا بصدَم النبي ﷺ تلك الأبراج المشيدة، والقلاع
الحصينة، والمناجم المكتظة بالذهب.. «الدنيا ملعونة.. ملعون
ما فيها، إلا ذِكرُ الله، وما والاه، وعالمٌ، أو متعلَّمٌ»^(١).

الدنيا في عين النبي ﷺ ليست «لا شيء»، بل إن اللا شيء
أكبرُ قدرًا منها!

إنها باختصارٍ: «ملعونة».

الدنيا إن لم تكنُ لله، فهي مطرودةٌ من رحمة الله، ومن بركة
الله، ومن توفيق الله..

ويقول ذات يوم ليُحرق بقايا الدنيا في نفوس تلاميذه،
ليحرق بقاياها في نفسي ونفْسك: «لو كانت الدنيا تُعَدِّلُ عند
الله جَنَاحَ بعوضةٍ، ما سَقَى منها كافرًا شربةً ماءً»^(٢).

إن جَنَاحَ البعوضة الحَقِيرَ له من القيمة ما ليس للدنيا
بكل تفاصيلها!

والسؤال: بأيِّ جزءٍ من أجزاء ذلك الجَنَاح الحَقِيرِ تعلَّقتْ
نَفْسِي ونَفْسُكَ؟!

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه بإسناد حسن.
(٢) رواه الترمذي، وقال: صحيح غريب.

بقول جابر رضي الله عنه: «ما سئل النبي ﷺ عن شيء قط، فقال: لا».

هل يقول: «لا» من ربي صحابته على أن الدنيا أقل من كلمة لا وكلمة نعم؟

أهدته امرأة بُرْدَة ليلبسها، فلبسها النبي ﷺ، وكان أحوَج ما يكون إليها، فرأها رجلٌ، فقال: يا رسول الله، ما أحسنَ هذه! فاكسنيها.. فقال: «نعم».. فخلعها، وأعطها إياه..

أهذا الرجل تقول قريش: إن كنت تريد مُلْكًا مُلْكناك؟

وما هو الملك في قاموس محمد عليه الصلاة والسلام؟

الدنيا بأملاكها يخلعها في لحظة، لأجل عينٍ أحد رفاقه..

الدنيا كلها لا تساوي عنده رغبة عابرة في نفس رجلٍ عابر..

❧ إلا أعطاه

يقول أنس خادمُ الرجلِ النبيل، وقد كان من أعرف الناس به: «كان النبي ﷺ لا يدخِرُ شيئًا لغد»..

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) الخبر في البخاري.

(٣) رواه الترمذي، وابن حبان في صحيحه.

حدّثني الآن عن مدّخراتنا؟

حدّثني عن أرصدتنا البنكية، حدّثني عن الدنيا التي ننتقلُ بها من مكانٍ إلى مكانٍ!

ويقول أنس: «ما سُئِلَ رسولُ الله ﷺ شيئاً إلا أعطاه»^(١).

وَضَعُ ما شئتَ من الخطوط تحت: (إلا أعطاه) ..

يقول: «فجاء رجلٌ، فأعطاه غنماً بين جبلين! فرجع إلى قومه فقال: يا قوم، أسلموا! فإن عمداً يعطي عطاءً من لا يجشى الفقر!».

الدنيا أقلُّ من أن يدفعها بيده، إنه حتى لا يريد أن يلمسها، لا يريد أن يتلبّس بشيء من متاعها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «لو أن لي مثلُ أُخْدِ ذهباً، ما يسُرُّني أن تأتي عليّ ثلاثُ لبالٍ وعندي منه شيء»^(٢).

هنا تتكسّر الدنيا موجةً موجةً على شاطئ رجلٍ يصعبُ على التاريخ فهمُ أغوارِ نفسه العظيمة.

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

الدنيا كلها لا تصلح أن تكون جارية مملوكة في بيت محمد
ﷺ؛ إنه يعرف قدرها جيدًا، فجعل إعادتها إلى حجمها
الطبيعي مشروع حياته، وأولى أولوياته.

عابر سبيل

ابنُ عمرَ من الصحابة الذي امتلأوا بعطر الرجل النبيل،
حتى إنه لم يكتفِ بالافتداء بسُتَّة التعبدية، بل بات يقتدي
بعادياته اليومية عليه الصلاة والسلام، ولا عاداتٍ في حياة هذا
العظيم!

حتى الشجرة التي كان يخفض النبي ﷺ رأسه إذا ما مرَّ من
تحت أغصانها، يخفض ابنُ عمرَ رأسه إن مرَّ من موقعها بعد أن
قُلِعَتْ بسنوات؛ لأن حبيته خفض رأسه هنا ذات يوم!

راحت الشجرة، واختفت الأغصان، ولم يختفِ طيفُ
الرجل النبيل من ذهن ابن عمر.

كان هذا الصحابيُّ الجليل مثلاً للزهد، وللبُعْدِ عن الدنيا،
ليس في بيته من الدنيا شيء، ولا في قلبه منها شيء، ولا في
كلماته منها شيء.

أندري ما السبب؟

اسمع السبب:

يقول ابن عمر: أمسك النبي ﷺ ذات يوم بمنكبي، وقال: «كُنْ في الدنيا كأنك غريبٌ، أو عابرُ سبيلٍ»^(١).

فتحوَّل ابن عمر إلى غريبٍ في هذه الدنيا، وإلى عابر سبيلٍ في أزقة هذه الحياة، تأتبه الخلافةُ عند باب بيته، فيفتحُ البابَ ويركُلُها، ثم يُغلقُ البابَ بهدوءٍ!

لقد نشر الحبيبُ عليه الصلاة والسلام مبدأ الزهد، والترفعِ عن الدنيا في قلوب أصحابه؛ لأنه كان يعلم جيداً أن حبَّ الدنيا هو البابُ الأخطر الذي يدخل من خلاله الوهنُ، وضياغُ الدُّنْيَا، ونسيانُ الميادى؛ لذلك ففي كل يومٍ من سيرته كلمةٌ، وفي كل حادثةٍ له موقفٌ، وفي كل منبرٍ له تذكيرٌ يقول: «ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكنني أخشى أن يُسَـطَّ عليكم الدنيا، كما يُسَـطَّتْ على مَنْ كان من قبلكم؛ فتَنَافَسُوها كما تَنَافَسُوها، وتُهْلِكُكم كما أهْلَكْتَهُمْ»^(٢).

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

﴿اَنْشُرُوْهُ﴾

يؤتى النبي عليه الصلاة والسلام بمالٍ من البحرين،
بقول الراوي: «وكان أكثرَ مالٍ أُتي به رسولُ الله»، هنا محكُّ
الكلمات، واختبار المقولات التي قالها لأصحابه، وهنا التطبيقُ
العمليُّ لدرس: «مالي وللدنيا»..

فقال النبي ﷺ لأصحابه لما أخبروه عن ذلك المال الوفير:
«اَنْشُرُوْهُ فِي الْمَسْجِدِ!»

لم يُرسلهُ إلى مخزنٍ خاصٍ محكَّم الإغلاق، ولم يعمل جرذاً
دقيقاً لموجوداتٍ ذلك المال، ولم يوقف الحراس حوله!

«اَنْشُرُوْهُ فِي الْمَسْجِدِ»؛ فالدنيا أقلُّ من أن نُطيلَ الكلام حولها.

فلما حانت الصلاة، خرج النبي ﷺ من حجرته للصلاة؛
بقول الراوي: «ولم يلتفت إليه»!

الاحظت العظمة؟ أرمت الشموع؟ هل أصيبت باندھاش؟

لا عجب؛ فإنك تقرأ سيرة محمد ﷺ، الذي يعتقد أن الدنيا
أقلُّ من أن يلتفت إليها.

نسيان الذات

إِنْ يُشِثْ يَا مُحَمَّدُ أَنْ أُطِيقَ عَلَيْهِمُ الْآخِسِينَ...

مَلِكُ الْجِبَالِ

الْحَرَّةُ الدِّينِيَّةُ

تلويع النقي

نسيان الذات

الجَلْمُ والنَّسَامُحُ هو أن تستطيع أن تتقّم، فنفضّل أن
نَبْسِمَ! وأن تَقْلِيَرَ على العقوبة، فتجعل مكانها مكافأة، وأن
تَمَكِّنَ من هدم جدارٍ أو شك أن يَنْقُصَ عليك، فنشيدُ.

ولكن ليس من السهل أن نسامح ونحلّم عمّن ظلمك،
ونفَنِّ في إيذائك، وسَهَرِ اللبالي حتى يَسُكَّ مصطلحات
يكبر بها نفسك، ويقضي على شعور الفرح في داخلك.

ليس من السهل أن تفعل ذلك؛ فالنفس البشرية رُكِبَتْ
على صعوبةٍ مثلِ هذا الإجراء؛ فالقضية ليست كلمة تفوها،
وانما إحساس بصُغُرُ رُوحك، ونظرتك، ومشاعرك، ويجعلك
تري ذلك الحَصَمَ الألدَّ منساورًا مع الولي الحميم؛ في تعاملك
مع، والإحسان إليه.

هذا الأمر الصعب هو من الممارسات السهلة لدى النبي
ﷺ، التي انعجنت مع نفسه، وانمرجت مع أيامه المليئة
بالإرهاق! فبات لا يستصعبها، ولا يشعر بأنه فعل أمرًا ذا بالٍ

عندما يعفو عمن ظلمه، أو يتجاوز عمن بغى عليه، أو يصفح
عن رُوح تلبّسها الشر، ويثبت له المكاييد.

❧ العضو عن فرعون

لو حاولنا أن نتخيّل الشيطان وقد غدا رجلاً يسير في أزقة
مكة راتخاً وغادياً، لصعب علينا أن نتخيّله في غير هيئة أبي
جهل؛ ذلك الرجل الذي تحوّل في أذهاننا إلى أيقونة للشر
المحضر، والسخرية اللاذعة، والمؤامرات السوداء، حتى
لقد ساء النبي ﷺ فرعون هذه الأئمة؛ ذلالة على تأصل
التزعة العدوانية في نفسه، وتمخضه للشر، والمعاداة للدعوة
الإسلامية.

ومع هذا، فإننا نلمح نبيّ التسامح في أبامه بمكة يدين كل
يوم سوءات ذلك الطاغية، ويعامله معاملة مستور الحال؛
فيدعوه إلى الله والدار الآخرة وكأنه ليس هو العدو الأول لله،
وليس هو الساخر الأكثر جرأة من الدار الآخرة.

ثم في لحظة من لحظات التسامح النادرة في عمر البشرية،
يرفع النبي ﷺ يديه داعياً الله: «اللهم أعز الإسلام بأخب

هدين الرجلين إليك: بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب^(١).

كيف استطاع النبي ﷺ أن يصهرَّ شعور الانتقام من رجلٍ
لَطَّخَ سُنْعَنَهُ، وآذاه في دعوته، وخطَّطَ لاغتياله، ويحوِّله إلى
حَدَبٍ وحرص ورغبة في أن يلتحق بقطار الدعوة، ويفدِّوَ
أحد الصحابة الكرام؟!

هذا لا يمكن أن تُطِيقَهُ نفسٌ لم تبلغْ ذِوَةَ العظمة!

﴿مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّْي؟﴾

بخطواتٍ أثقلها التعبُ يلجأ النبي ﷺ إلى شجرة ظليلة،
يعلِّقُ على غصنٍ منها سيفه، ثم يستلقي تحتها، ويفغو إغفاءةً
الرجُل الذي هدَّتهُ مهِّمَّات الدعوة، إغفاءةً رجُلٍ رسالتهُ الأولى
في الحياة إنقاذُ العالم من التوحُّش الذي يدفعهم إليه الكفرُ بالله.

في هذه الأثناء، نظر أعرابيٌّ يُخْفِي كفره إلى النبي ﷺ، فإذا
بكل التفاصيل تدفعه إلى أن ينفذَ خطة أضمرها منذ زمن:
القضاء على الشخص الذي لم تحبَّ الدنيا رجلاً مثله من قبل..
خطئتهُ هي قطعُ اليد التي امتدت إلى البؤساء، وخنقُ الروح

(١) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

التي تناوّه للحزاني، وإنهاء حياة الرجل الذي يُعدُّ أهم من الحياة ذاتها!

استيقظ النبي ﷺ فجأة، فرأى الأعرابي شاهراً سيفه عند رأسه.. لم تتسبغ عيناه عليه الصلاة والسلام انتساعاً إضافياً، كما يحدث لأي مندهش، لم تزد ونيرة نبضات قلبه، بل كان المندهش حقيقة هو الأعرابي! فسأله: ألسنت خائفاً مني؟ فجاء الجواب كالبرج الضخم المشيد بالثقة بالله: لا..

فأراد الأعرابي من النبي ﷺ أن ينتبه إلى السيف الذي في يده.. أراد أن يلفت نظره إلى أنه أتى لا غتباله، لا ليرتشف معه فتجائناً من القهوة، فقال: مَنْ يمنعك مني؟ فقال النبي ﷺ بكل هدوء: الله!

ولأن «الله» خرج معها إحساسٌ بحجم الكون بمعنى «الله»، فما إن سمعها الأعرابي حتى هوى السيف من يده، فقام النبي ﷺ وأمسك بالسيف، ثم نظر إلى الأعرابي المذعور، وقال له: مَنْ يمنعك مني؟ فقال الأعرابي: كُنْ خيراً آخِذاً..

فعفا عنه النبي ﷺ.. فذهب الأعرابي إلى قومه فقال لهم: جئكم من عند خير الناس..^(١)

(١) رواه أحمد، وأصله في الصحيحين.

إن ما يفعله النبي ﷺ من عظمة وشموخ لا مرّ تعجز عن
استيعابه الأرواح التي قطنت الصحراء!

إن عمداً معضلة من معضلات الحياة بالنسبة لأولئك
الأعراب!

كيف يمكن أن يوجد فردٌ تخلص من قُرْدَانِيته، واستطاع
أن يتزعّج نفسه من نفسه، وأن يتعامل مع أحاسيسه بموضوعية
مطلقة؟!

أعرفت الآن لماذا تجلس العظمة دائماً بالقرب منه؟ ولماذا
قرّر الشموخ أن يكون حامل مظلتي عليه الصلاة والسلام؟

المراقف التي تقف فيها الأنفاس، ويتحطّ عندها عقربُ
الدقائق يتعامل النبي ﷺ معها بأناقة بالغة، وبرهافة تُدهشُ
العقول، وكأنه عليه الصلاة والسلام يزاوُلُ أمراً اعتيادياً، لا
أنه يتعامل مع مجرمٍ أتى خصيصاً لاغتياله!

ثم بعد هذا الموقف المليء بالإثارة، يأتي التوقيع النبوي
الجليل بالعفو، ويسقطُ النبي ﷺ حقه في قتل المخطئ
لاغتياله، وتمضي الحياة بهدونها، ونعود ظلال تلك الشجرة
تنموّج على صفحة أنبل وجوه عرفته البشرية.

❧ رُوحُ شَاسِعَةٌ

بجَدُّنا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَنْ مَوْقِفٍ حَدَّثَ أَمَامَ عَيْنَيْهِ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَمْشِي وَعَلَيْهِ رِداءٌ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، يَقُولُ أَنَسُ: «فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِداءِهِ جَبَذَةً شَدِيدَةً، فَنَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ أَثَرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّداءِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذِنِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَرَّ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعِطَاءٍ»^(١).

اصْدِمْ شَعُورَ الْاِتِّفَاعِ فِي نَفْسِكَ بِمَسْأَلَةِ «جَبْذِهِ»!

أَعْرَابِيٌّ يَجْذِبُ الرَّجُلَ الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ لِبُكُونِ رَسُولِهِ إِلَى سُكَّانِ الْأَرْضِ! يَجْذِيهِ بِشِدَّةٍ، فَتَوَثَّرَ جَذْبُهُ فِي صَفْحَةِ عُنُقِ الرَّجُلِ النَّبِيلِ، حَتَّى إِنْ أَنَسَا ﷺ يَرَى أَحْمَرًا فِي عَاتِقِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ أَثَرِ نَلَكِ الْفِطَاظَةِ!

ثُمَّ يَقُولُ بِلُغَةِ صَحْرَاوِيَةٍ بِالْغَةِ التَّحْجِيرِ: يَا مُحَمَّدُ، أَعْطِنِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ!

إِنْ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْ هَذَا الْمَوْقِفِ مَا يَجْعَلُ الصَّبْرَ يَنْفَعُ، وَالتَّوَاضِعَ يَتَلَاشَى، وَالسَّاحَةَ تَخْفَى، وَمَعَ ذَلِكَ بَلَّتْ عَاتِقُ النَّبِيِّ

(١) رواه البخاري ومسلم.

يُخَوِّلُ إِلَى الْأَعْرَابِ ... يَضْحَكُ !

كيف استطاع ذلك؟ وما مقدار العظمة التي اكتنفت بها
رُوحُه الشاسعة، رُوحه مترامية الأطراف؟

كيف تضحك أيها النبيل وصفحة عنقك تحتاج إلى أن
تمسها بيدك المباركة ليخفَّ ألمها؟ أليس لها اعتبار لتغضب
قليلاً من أجلها؟

كان عليه الصلاة والسلام يتحكَّم في تصرفاته بطريقة
يصعب على الخيال أن يصدقها، ولم يروها الثقات الأثبات،
لشككتنا فيها؛ إذ إن قدرة الإنسان على أن يقدِّم حليماً متجاوزاً
مهما كبرت فهي محدودة، ومهما اتسعت فإن لها مساحة
افتراضية لا يمكن تجاوزها، ولكنَّ النبي ﷺ - في جميع فصول
سيرته - أثبتَّ للدنيا أنه استثناء في كل شيء، وأنَّ الجِلْمَ أحدُ
الصفات التي كان فيها استثنائياً بدرجة هائلة .

❧ إن شئت

كان النبي ﷺ في جُلْمِهِ وكأنه بلا غضب، وبلا خاصية
النَّأَمِ من المواقف الصعبة، فتجده يُتَقَنُّ مهارةً غَضَّ الطرف
عن الإساءة الجارحة، ولديه سرعة عجيبة في تسليان موافق

الحِذْلَانِ التَّيَّ بِطَعْنَتُهُمَا رَفَاقُ الْأَمْسِ، وَأَصْفِيَاءُ الزَّمَنِ الْمَاضِي.
عاد عليه الصلاة والسلام من رحلة دعوية شاقّة، سافر
فيها إلى الطائف، كانت نتائجها: تكذيبًا، وطرْدًا، ودماء تُثَعَّبُ
من جسده الطاهر.

عادَ وهمُّ كالجبال يُحِيطُ به من جميع الجهات، فكيف
سِرْجُ إِلَى مَكَّة؟ وبأي وجهٍ سيلتقي بأبي جهل المعاند، وأبي
هَبِّ المتكبر، وعُفْبَةُ المستهزئ؟!

فيدعو الله بدعائه لو أذن الله له أن يتحوّل إلى عاصفة، لانتزع
مشركي مَكَّة من بين الجبال، وألقى بهم في وادي النسيان.

ومن بين تهويلات ذلك الكَرْبِ العظيم، ينزل من السماء
ملكُ الجبال بنفسه، ليقول للنبيّ الذي كذّبه رفاقُ الْأَمْسِ،
وشيعوه بأنواع الشتائم، وجعلوه رمزًا للكذب والدجل؛
يقول له: «إِنْ شِئْتَ أَنْ أَطِيقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشِيَيْنِ»، والأخشباني:
جبلانٍ يحيطان بمكة.

كانه يقول: إِنْ شِئْتَ أَنْ أَنْهِيَ أَبَا جَهْلٍ الَّذِي أَوْقَفَ حَيَاتَهُ
لِصَبِّ الْعَذَابِ عَلَى رِفَاقِكَ، وَأَقْضِيَ عَلَى عَقْبَةِ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ

الذي وضع سَلاَ الجزور على ظهرك، وأَسْحَقَ أبا هب الذي
أشاع بين الناس أنك كذاب..

إنِ بُنِيتَ أن تصل إلى مكةَ فلا نجد هؤلاء العُتَاة الظَّلَمَةَ،
فأنا أفعل ذلك الآن، أُطِيقُ عليهم الجبلين لنتهي أسطورة
الإجرام والتكذيب.

في هذه اللحظة التي تتوقف فيها أنفاسُ التاريخ، يقرُّ
النبي ﷺ أن ينسى دموعه، وأن يؤجِّل أحزانه، وأن يتنازل
عن حقِّ دمانه التي ما زالت تُثَقِّبُ، ويقول بلغة لا يفهمها
التوحُّش الذي توغَّل في أغوار الأرض تلك السنين: «بل
أرجو أن يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وحده، ولا بُشْرَكَ
به شيئاً»^(١).

يا هذه النفس التي تفكَّرُ في لحظة الانتقام اللذيذ بالغدا
تفكَّرُ في عَدَمٍ لم يخلقه اللهُ بعداً!

إنه لم يسامح الأحياء، بل إن حِلْمَهُ وتسامحه تجاوز الأحياء
إلى أناس لم يخلقهم اللهُ بعداً!

(١) أخبرناه في صحيح مسلم.

ثم يكمل طريقه إلى مكة، وكلُّ حجرٍ في الطريق يرمق
العظمة وهي تسير، والشموخ وهو يدفن رغبانيه، ويتعالى
عليها.

يعود إلى مكة المكتظة بالحياة، التي لولا الله ثم قلبُ هذا
الإنسان العظيم، لبانت بلا حياة، يعود لتصدمه فهقهاتُ
أبي جهل، وأكاذيبُ أبي لهب، وسخريات عقبة، فينظر إليهم
ودويُّ صوتِ ملكِ الجبال برن: «إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطِيقَ عَلَيْهِمُ
الْأَخْشِيِّينَ»، فيقرُّ عليه الصلاة والسلام أن يستعيصَ عن
إطباقِ الأخشيين بأن يطيق هو جفنيه عن تلك النفوس
المريضة، ويسير في دروب الحياة بعظمة تنظر إليها جبالُ مكة
بذهول.



الإطار الأجل

«كنتُ أمشي مع النبي ﷺ وعليه بُردٌ نجرانيٌّ
غليظُ الحاشية»

أنس بن مالك رضي الله عنه

الإطار الأجل

لن يحتاج محمد ﷺ إلى سوارين كسوارَي كسرى؛ ليثبت
سعلم أنه الرجل الأول.

لن يحتاج إلى قصر ذي قباب كثيرة، ومداخل واسعة،
وشرف مشيدة بالرّخام الصّقل؛ حتى يفهم الناس دعوته،
ويعملوا بسنته، ويتلوا القرآن الذي أنزل عليه.

لن يحتاج إلى فخامة مصطنعة، وإطار متكلف؛ لتبدو
صورته أكثر جمالاً؛ فخامة نفسه كافية جدّاً، وشهائله الطيبة
أجمل إطار لروحه المكتظة بالجمال والجلال.

إن الأشياء التي تسكن داخل محمد ﷺ ذات نضاعة كافية؛
بحيث إن أي محاولة لإضافة تحسينات قد تظلم شيئاً من
توحيدها الفريد! فلا أجمل عند الحديث عن محمد من الحديث
عنه بالهيئة التي كان عليها، دون إضافة لمسات، أو رفع في
درجة الإضاءة، عليه من الله أزكى الصلاة، وأتم التسليم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ، فنظر
إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل

منذ يوم خُلِقَ قبل الساعة، فلما نزل، قال: يا مُحَمَّدُ، أَرْسَلِي
إِلَيْكَ رُبَّكَ، قال: أَفَعَلِكُنَا نَبِيًّا يَجْعَلُكَ، أَوْ عَبْدًا رَسُولًا؟ قال
جبريل: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ، قال: «بَلْ عَبْدًا رَسُولًا»^(١).

فلم ينفكُ النَّبِيُّ ﷺ عن تأدية رسالة رَبِّهِ بِرُوحِ الْعِيدِ لَهُ.
المواضع لجلاله، الذي انزاحت الدنيا عن قلبه، فبات أهمُّ
بَيْتٍ شِعْرٍ فِي قَصْبَةِ عِظَمَاءِ التَّارِيخِ.

❧ أَيْنَ مُحَمَّدٌ؟

الشيء الذي تصدمك في شخصية الرجل النبيل عليه
الصلاة والسلام: هو أنه لم يَكُنْ يسعى إلى أن يَغْدُوَ مُهَابًا، أَوْ
أَنْ يَتَخَلَّقَ بِهَا يَضَادُّ طَبِيعَتَهُ الْعَفْوِيَّةَ، الَّتِي زَادَتْهُ هَيْبَةً وَحُبًّا.

فقد كان الرجلُ الغريبُ يدخلُ إلى المسجدِ باحثًا عنه، وهو
لا يَعْرِفُهُ، فلا يَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ إِلَيْهِ بِهَيْبَةٍ مَعِينَةٍ، أَوْ لَيْسَ انْفِرَدَ
بِهِ، فَيَحْتَاجُ إِلَى النِّدَاءِ: أَيْنَ مُحَمَّدٌ؟

لقد أسقط عليه الصلاة والسلام جميعَ (البرونوكولات)،
التي يظن بعض الناس أن المنصب يقنضها، وأنها (رتوش)

(١) رواه الإمام أحمد، وصححه شامر.

إضافية تحافظ على هيبة الكرسي، وجلالة المكانة، ولكنه عليه الصلاة والسلام قرّر شطبها من قائمة اهتماماته؛ فليس هناك شيء يحافظ على هيبة الكرسي أقوى من العدل والإنصاف، ولا رتوش تُبقي للمنصب مكانته وأهّنه كالصدق والتواضع؛ لم يكن ثمة اختلافٌ ظاهري كبير بينه وبين أبي ذرٍّ، أو عبادة بن الصامت، أو خبّاب بن الأرتّ رضوان الله عليهم.

ولم يكن هناك شيء يلبّسه ليفرق الناظر إليه بينه وبين سلمان الفارسي، أو بلال بن رباح، أو صُهَيْب الرومي!

ومع ذلك، فما إن تلتقي عينًا الناظر إليه بعينه حتى بأنه ذلك الإحساس الخاص، وذلك الشعور الدفّاق!

يقول عبد الله بن سلام ؓ وقد كان يهوديًا فأسلم فيما بعد: «لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ، انْجَفَلَ النَّاسُ قَبْلَهُ، فَقَالُوا: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ، فَجِشْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَى وَجْهِهِ، فَلَمَّا رَأَيْتُ وَجْهَهُ، عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ! ^(١)».

هذا يهوديٌّ لم يسبق له أن رأى النبي ﷺ، يراحم فيمن

(١) وراه الترمذي، وصححه الألباني.

بِزَاحِمٍ؛ لِيَنْظَرَ إِلَى وَجْهِ هَذَا الَّذِي جَاءَ لِلنُّورِ مِنْ مَكَّةَ، وَيَزْعَمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَإِذَا أَوَّلُ مَا رَأَاهُ فِي وَجْهِهِ: أَمَارَاتُ الصَّدَقِ، وَهَالَاتُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يَقُولَ الْكَذِبَ!

كَيْفَ لِلصَّدَقِ أَنْ يَنْحَوِيَ مِنْ أَحْرُفٍ تَخْرُجُ مِنَ الْفَمِ إِلَى نَظَرَاتٍ تَنْبَعُ مِنَ الْعَيْنِ، وَإِلَى هُدُوءٍ يَسْكُنُ فِي الْقَسَمَاتِ؟

هَذِهِ هِيَ الْهَيْئَةُ وَالْمَكَانَةُ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا صَاحِبُ الْمَنْصِبِ!

إِنَّمَا أَشْيَاءُ أَغْلَى مِنَ الْمَوَاقِبِ، وَالتَّشْرِيفَاتِ، وَالْمَرَامِسِ..

❧ بِلَا مَوْكِبٍ

وَكَانَ لِبْنُ الْجَنْبِ مَعَ الضَّعْفَاءِ؛ يَقُولُ أَنَسٌ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): «إِنْ كَانَتْ الْأُمَّةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَنْطَلِقَ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ»^(١).

بِلَا مَوْكِبٍ، وَبِلَا خَدَمٍ، وَلَا حَسَمٍ، تَأْتِيهِ الْأُمَّةُ (تَقُولُ بَعْضُ الرُّوَابَاتِ: إِنْ فِي عَقْلِهَا شَيْئًا)، فَيَسِيرُ مَعَهَا حَيْثُ شَاءَتْ، وَهِيَ تُرَوِّي لَهُ حَاجَتَهَا، وَتَحْكِي لَهُ مُشْكَلَتَهَا، فَلَا يَطْلُبُ مِنْهَا أَنْ تَأْتِيَ أَبَا بَكْرٍ لِيَنْظُرَ فِي حَاجَتِهَا، أَوْ يُحِيلَهَا عَلَى عَمْرِ لِنَسْجَلٍ

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

موعدها لديه، بل كان هو مَنْ ينطلقُ معها، وينظر في شأنها بكل عفوية عظيمة، وتواضع مهيب.

٨٣ غليظ الحاشية

كان عليه الصلاة والسلام أسهل ما يكون في لباسه، لم يكن يبحث عما يلفت الأنظار، بل يبحث عما يريح نفسه، ويجمع قلبه على فضاها الإيمان التي بعث الله من أجلها.

فمن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ صلى في خبيصة لها أعلام، فنظر إلى أعلامها نظرة، فلما انصرف قال: «اذهبوا بخبيصتي هذه إلى أبي جهيم، وأثروني بأبيجانية أبي جهيم؛ فإنها أخسني آثما عن صلاتي»^(١).

والأبيجانية: كساء غليظ من صوف! يفضل النبي ﷺ على الخبيصة، ذات البهاء والألوان الجميلة؛ لأنها لا تشغله بجمالها عن جلال مَنْ يناجيه؛ فالحياء عند محمد ﷺ ليست مسرحاً للتجمل البحت، وإنما مضمار للسبر إلى الله، وعلى هذا فليلبس الغليظ من الثياب، والرث من الأسفل، ما دام

(١) رواه البخاري تعليقا.

خَفَفَانُ فَلَبِهْ يَهْدَا مَعَ هَذَا اللَّبَاسِ الْمُتَوَاضِعِ جَدًّا.

يقول أنس رضي الله عنه: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِي غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ...»^(١).

هَذَا الَّذِي لَوْ أَرَادَ لِدَعَا اللَّهَ فَجَعَلَ لَهُ خَيْرًا مِمَّا يَمْلِكُ عِظَاهُ الدُّنْيَا؛ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَجَعَلَ لَكَ قُصُورًا﴾، وَمَعَ ذَلِكَ يَلْبَسُ بُرْدًا نَجْرَانِيًّا غَلِيظَ الْحَاشِيَةِ»^(٢).

وَهَذَا الْبُرْدُ النَجْرَانِي يَذْكُرُنَا بِالْجَنَّةِ الشَّامِيَةِ الَّتِي تَحْدُثُ عَنْهَا الْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَتْ عَلَيْهِ جُبَّةٌ شَامِيَةٌ، فَذَهَبَ لِيُخْرِجَ يَدَهُ مِنْ كُمِّهَا، فَضَاقَتْ، فَأَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ أَسْفَلِهَا^(٣).

وَضَعُ خَطَأً تَحْتَ: «فَضَاقَتْ»، ثُمَّ سَأَلَ نَفْسَكَ: مَتَى ضَاقَ عَلَيْكَ ثَوْبٌ مِنْ ثِيَابِكَ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُخْرِجَ يَدَكَ مِنْ كُمِّهِ لِلرُّضْوَةِ، فَاحْتَجَجْتَ إِلَى أَنْ تُخْرِجَ يَدَكَ مِنْ جِهَةِ رِقْبَةِ الثَّوْبِ؟ إِذَا رَأَيْتَ رِيَّاحَ الْعَفْوَةِ تَهْبُ، فَتَقْتَلِعِ الزَّيْفَ، وَتُلْغِي

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) غليظ الحاشية: أي أطرافه خشنة غير ناعمة.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

التجبر، وتطمس الكذب الذي يحيط به المتكبرون أنفسهم:
فاعلم أنك بإزاء الرجل النيل محمد ﷺ.

عظيم في خرابة

استوقفني حديث في صحيح البخاري، أو بالأحرى
متقدمة الحديث هي التي استوقفتني كثيراً، وسأكتفي بذكرها؛
يقول عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه): «بيننا أنا أمشي مع رسول الله ﷺ
في حَرَبِ المدينة، وهو يتوكأ على عَصَبٍ... الحديث».

أندري، ما الحَرَبُ؟

إنها الأماكن المهجورة، التي هجرها الناس، وتمددت على
أرضها الحشائش غير النافعة، وهانت على أصحابها؛ فبات
الناس يرمون فيها أمتعتهم التي لا يحتاجون إليها!

هذه هي الخرابة، وتُجمع على خَرَبٍ!

فكان النبي ﷺ يمرُّ ومعه ابن مسعود بتلك الأماكن،
فيسير فيها بكل تواضع، وبلا أنفة مزعومة، أو كثير يرتدي
ثوب العزة!

(١) ورواه البخاري ومسلم.

هو عليه الصلاة والسلام أعزُّ الناس، وأرفع الناس، دون
أن يختار لقدميه الأماكن الأكثر ثراءً!

لم يَحْتَجْ حتى يقنع الناس بأهميته إلى أن يمشي على السجاد
الأحمر، ويلقي الزرابي على جانبيه، ويرسل فتيانته أمامه
ليحملوا المجامر التي ينبعث منها البخور الهندي الفاخر!

لقد استعاض النبي ﷺ بحجارة المدينة السوداء عن
السجادة الحمراء، وبالحشائش المنتشرة في تلك الخرائب عن
الزرابي المبثوثة، وبرائحة تراب المدينة الطاهر عن تلك المجامر
المنضوعة طيباً!

أعظم رجُلٍ التفت عين الرجولة به يمشي في خرابة بكل
عظمة، وبكل شموخ.. إن الشموخ لا يعني أن أجاب بضداع
المهابة، وأن ألق مَنْ حولي وأتبعهم في اختيار ما ألبس، وما
أركب، وأين أسير، وكيف أتكلم! فأعظم العظمة تسكن في
أبسط البساطة.. وهذا ما كان النبي ﷺ يريد أن يقنع العالم به!



وكان إنساناً

أنا يا رسول الله جئتُ أحرُسُكَ!

سعد بن أبي وقاص

الحج النبلي

عز الدين

وَمَا كَانَ إِنْسَانًا

الإنسانية شيءٌ يُبْصَرُهُ في كل زاوية من زوايا حياته عليه الصلاة والسلام، ولا تستطيع أن تَنزِعَ صفةً من صفاته عن الإنسانية! فقد أرادَهُ اللهُ إِنْسَانًا ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾.

ففي رحمتهِ إنسانية، وفي شجاعتهِ إنسانية، وفي وفائه إنسانية، وفي غضبهِ إنسانية.. وفي إنسانيته أرقى معاني الإنسانية!

فقد كان النبي ﷺ في كل فصول حياته يحاول أن يجدد معنى أنه إنسان؛ يغضب ويرضى كالbشر، يحب ويكره كالbشر، ويفرح ويحزن كالbشر.. ولكنه في أمورهِ التي يكون فيها كالbشر يتفاعل معها تفاعلاً يجعله فيها ملائكاً في صورة بشر!

إن إنسانيته عليه الصلاة والسلام تريد منا ألا ننسل من احتياجاتنا، ولا نهرب من أحاسيسنا العفوية، وألا نصنع لأنفسنا تماثيل ثم نطوف حولها!

لن نكون حياً إذا لم نتحرك مع الحياة وفق حركتها العادية؛

أن نضحك إذا استدعى الموقف، وتبكي إن اختلج قلبك،
ونعجب إن رأيت ما نهو إليه النفوس، وتخاف إن تسللت
الراحة إلى داخلك.

أن تكون إنساناً نحره الحياة بيدها، وبحرك الحياة بروحه؛
هذا ما يريده محمد ﷺ، وهذا ما كان عليه.

٤٣ إنسانية بحتة

بقرظ علي بن أبي طالب (ع) زوج فاطمة بنت النبي ﷺ أن يتزوج
بامرأة أخرى؛ هي ابنة لأبي جهل عدو الإسلام الأول.

وهذه قضية لا مشكلة فيها من الناحية الدينية، فتمى الخبر
إلى علم النبي الإنسان ﷺ، فغضب، غضب غضبة بشرية، ثم
صدع بمقوله: «لا تجمعن ابنة رسول الله مع ابنة عدو الله»^(١).

وقد أخبر النبي ﷺ أنه لا يحل حراماً، ولا يجرم حلالاً،
إذا القضية شخصية، لما علاقة بأبونه أكثر من علاقتها بنبوته.

إننا نكون في ورطة حفيقة لو بعث الله لنا ملكاً، لا يشعر
بما نشعر به من أحاسيس، ولا يعترضه ما يعرضنا من مشاعر

(١) أصل الخبر في الصحيحين.

لذلك؛ فقد قدر الله على نبيه الكريم أن يكون إنساناً،
لنستطيع الاقتداء به، وننفهم الشعور الإنساني كيف يفعل
وهو يتعاقب مع فزوة الجلاء الوجداني، فلا يلغى الأول الثاني،
ولا يدفن الثاني الأول.

هو نبي عظيم، وإنسان كريم، لم يبعثه الله تعالى ليعتق
معاني الإنسان في قلوب الناس، فلا يغضبون ولا يحبون، ولا
يضحكون ولا يبكون، بل جاء ليعلمهم كيف يكون، ولكن
بتجليد، وكيف يضحكون، ولكن بوقار، وكيف يحبون، ولكن
برقي، وكيف يغضبون، ولكن بعقل!

علمهم كيف يمزجون طبائعهم الأرضية بقيمهم السماوية؛
فبيح عن ذلك أعظم مزيج.

❧ بند العادية

ذات يوم حصل خلاف بين جعفر بن أبي طالب وعلي
بن أبي طالب عليه السلام حول ابنة حمزة بن أبي طالب بعد موته عليه السلام
في غزوة أحد، وأبها أحق بولائها.. فافتنع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحجة
جعفر؛ فعمل البنت في كفالته..

فماذا فعل جعفر؟

قام بجُلُّ حول النبي ﷺ؛ وهو قَفَزَ على قَدَمٍ واحدة،
بطريقة نَعَبْرٍ عن الفرج، فاستغرب النبي ﷺ ذلك التصرُّفَ،
وسأله عنه، فأخبر أنه تفاعلٌ طبيعي، بفعله الحبشةُ في مثل هذه
المواقف السعيدة^(١).

فلم يَنُحِّ النبيُّ الإنسانَ ذلك الشعورَ الإنساني، وذلك
الفعلُ العفوي، الذي اقتبسه جعفرٌ من أناس كَفَّار! وإنما
عَدَّهُ تصرُّفاً عادياً، يوضع تحت بند العادية، ولا يستحقُّ حتى
التعليق.. بل قد يجلب ابتهاماً، كثيراً ما يرسلها النبيُّ ﷺ في
مثل هذه المواقف؛ ففي رواية للقصة: أن النبي ﷺ قَبَّلَ بين
عينَي جعفر، وقال له: أنت أشبهُ الناسِ بِخُلُقِي وَخُلُقِي!

❧ رَعِشَةُ خَوْفٍ

ونَحَدَّثُنا ونَتحدَّثُ كثيراً عن شجاعته عليه الصلاة
والسلام، وتوكُّله على الله، ولكن الله تعالى يقدِّرُ له ذاتَ ليلةٍ
أن يَمَسَّ رُوحَهُ ما نشعر به من خوفٍ ورهبةٍ؛ فنقول عائشةُ
رضي الله عنها: «أَرَقَّ رسولُ الله ﷺ ذاتَ ليلةٍ، فقال: ليت

(١) أخرجه أبو داود، وحسنه العراقي

رجلاً صالحاً من أصحابي يحرُسُني الليلة! قالت: فسمعنا صوت السلاح، فقال رسول الله: مَنْ هذا؟ قال سعد بن أبي وقاص: أنا يا رسول الله، جئتُ أحرُسُكَ، فنام رسول الله ﷺ حتى سمعتُ غطيته^(١).

كيف كنّا مستعامل مع مخاوفنا البشرية لو لم يخفِ النبي ﷺ تلك الليلة؟ كيف كنّا سترُدي ببعضنا لو صرّح أحدهم عن خوفٍ مَسَّ قلبه، أو رهبةٍ تسَلَّتْ إلى نفسه؟

إنه الإنسان الذي تُهَبُّ نسايمُ الرهبة على قلبه، فيتعامل معها بإنسانية؛ حتى لا يلوم بعضنا بعضاً.. حتى لا يظهر متقمصو النقاء والطهرانية فيفرعوننا على رعية خوف، أو دمة هم، أو انقباض هيبة!

❧ المعادلة الصعبة

لم يكن النبي ﷺ يعتقد أن الحياة مسجدٌ، كل ما فيها ذكْرٌ وصلاة وعبادة، بل إنه جاء ليَجْعَلَ العبادة شيئاً أكبرَ من الصوم والصلاة.. إنَّ العبادة أنْ تعيشَ في الحياة بالشكل الذي أَرَادَكَ

(١) رواه البخاري ومسلم.

الله أن نعيش فيها.. إنَّ العبادة أنْ نصليَّ ونصومَ ونجاهدَ، وأنْ
ننامَ ونأكلَ وتضحكَ.

إنَّ هذه المعادلة الصعبة على بعض الأنفس هي في حقيقتها
خروجٌ من شكل العبادة، ودخولٌ إلى قلب العبادة النابض.

العبادة ليست أن تتحوَّلَ إلى مَلَكٍ، وإنما أن تبقى بشراً
يسجد هنا، ويضاحكُ أهلهُ هناك.

قعد عثمانُ بن مظعون يتعبَّدُ، وفرَّغَ نفسه لذلك، فاتاه النبيُّ
ﷺ فقال: «يا عثمان، إن اللهَ لم يبعثني بالرهبانية، وإن خيرَ
الَّذين عند الله الخفيفَةُ السَّمْحَةُ»^(١).

إذا، كُنْ إنساناً قبلَ وبعدَ وفي أثناء فعلِكَ للعبادة، نَكُنْ
حنيفياً سَمِحاً..

هذا ما علَّمَهُ النبيُّ ﷺ لأصحابه؛ بقوله، وبفعله، وفي
تفاصيل حياته كلها.

(١) أخرجه ابن سعد وحسنه الألباني.

﴿ أريد رؤيتك ﴾

يُحِبُّ أَصْحَابُ السَّيْرِ: أَنْ وَحْشِيًّا (قاتل حمزة) قَدِمَ إِلَى الْمَدِينَةِ مُسَلِّمًا، فَرَأَاهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: وَحْشِيٌّ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اجْلِسْ، فَحَدَّثَنِي كَيْفَ قُتِلَ حَمْزَةٌ، قَالَ: فَحَدَّثْتُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَيْحُكَ! غَيَّبَ عَنِّي وَجْهَكَ، فَلَا أَرَيْتَكَ» قَالَ: فَكُنْتُ أَتَنَكَّبُ النَّبِيَّ ﷺ حَيْثُ كَانَ، حَتَّى قُبِضَ^(١).

كَانَتْ تَفَاصِيلُ قِصَّةِ مَقْتَلِ حَمْزَةٍ مُؤَلِّمَةً جَدًّا، وَكَانَ حَمْزَةٌ رَكْنًا مِنْ أَرْكَانِ هَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ، أَسْلَمَ فَكَانَ إِسْلَامُهُ فَتْحًا وَعِزًّا، وَبَاتَ ضَعْفَاءُ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ مَوْتِهِ فِي مَنَعَةٍ، فَكَيْفَ نَظَرُ أَنْ تَفْعَلَ نَبْضَاتُ قَلْبِ النَّبِيِّ الْإِنْسَانِ وَهُوَ يَسْمَعُ قِصَّةَ قَتْلِهِ الشَّنِيعَةِ؟ كَيْفَ سَتَحَرِّكُ الدَّمَاءَ فِي جَسَدِهِ؟ كَيْفَ سَتَفَاعِلُ الْإِنْسَانُ فِيهِ مَعَ الْوَحْشِيَّةِ فِي ذَلِكَ السَّرْدِ الدَّمَوِيِّ؟

لَا أَرِيدُ رُؤْيَاكَ، غَيَّبَ عَنِّي وَجْهَكَ! حَتَّى لَا تَعُوذَ صُورَةُ حَبِيبِي حَمْزَةٍ وَهُوَ بِصَارِعِ أَلْمِ اغْتِيَالٍ غَادِرٍ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ فِي قَلْبِ مَعْرَكَةٍ

(١) القصة في صحيح البخاري بصيغة مفارقة.

اغتيال تشكّل بريشة ألوانها الدماء والغدر، وقدر من
الروحبة لا بأس به.

لا تفهمني بالعاصفة، ثم تبحث عندي عن مطر!
هذا ما أراد النبي ﷺ أن يفهمه وحشي، وكل وحشي.

لم يقاوم النبي ﷺ تلك المشاعر الإنسانية في ذاته، لم يحاول
أن يتجلب معنى التسامح والهدوء النفسي والتصالح مع
الذات، بل ترك الإنسان يتحدث؛ حتى نتعلم أن لا تعارض
بين أن أكون جيّداً، وأن أكون رجلاً يغضب إذا ما استغضب،
فأرجوك لا تخنق الإنسان في نفسي! سأتمالك قدر الاستطاعة،
سأكظم غيظي بكل ما أوتيت من صبر، ولكن إن عجزت
ذات يوم عن هذه الملائكية، فلا توبّخني؛ فأنا إنسان!

﴿ فضحك ﴾

كانت لعبد الله بن رَاحَة جارية يستيرها عن أهله،
فبصرت به امرأته يوماً قد خلا بها، فقالت: لقد اخترت أمّك
على حرّتك؟

فجأحدها ذلك، وأنكر.

قالت: فَإِنْ كُنْتُ صَادِقًا، فاقْرَأْ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّهُ تَعْلَمُ
أَنَّهُ إِنْ كَانَ عَلَىٰ جَنَابِي، فَلَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ!

فاحتال عبدُ الله عليها، وقرأ شيئًا من الشعر على أنه قرآن، فقال:

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
وَأَنَّ النَّارَ مَشْوَى الْكَافِرِينَ

قالت: فِرْذَنْ آيَةً.

فقال:

وَأَنَّ الْقَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ طَافٍ
وَفَوْقَ الْقَرْشِ رَبُّ الْعَالَمِينَ
وَنَحْمِلُهُ مَلَائِكَةُ كَرَامٍ
مَلَائِكَةُ إِلَهِ مَقْرَبِينَ

فقالت: آمَنْتُ بِاللَّهِ، وَكَذَّبْتُ الْبَصَرَ!
فَأَنَّى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَحَدَّثَهُ، فَضَجَّكَ، وَلَمْ يَنْبِرْ عَلَيْهِ^(١).

(١) أَخْرَجَ النَّصَّ ابْنُ عَسَاكِرَ، وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي الْإِسْتِيعَابِ: وَبَيَّنَّا مِنْ وَجْهِ
صَحَاحٍ.

أرجوك استخرج: «فَضَحِكَ ولم يَغْبِرْ عليه»، وكَبَّرَهَا
أضعاف المرات، واجعلها شعارًا لك في حياتك، مع هذه
المواقف العفوية.

مع أن عبد الله أتى بأبياتٍ من الشعر على أنها كلامُ الله،
ومع ذلك: «ضَحِكَ ولم يَغْبِرْ عليه»!

عندما جاء الرجلُ النبيل لم يخرج ثيابًا تُظهِرُ مَنْ يرتديها
عظيمًا، فقط نفّس الغبارَ عن قميص الإنسانية، ثم ارتداه،
وخرج.. عندما جمع التصنعُ ثيابهُ في حقييته، وقرَّرَ المغادرة!

أرأيتم إنسانًا استطاع أن يحافظ على الإنسان في نفسه
كمحمد ﷺ؟ ففي الوقت الذي شَبَدَ معاني الإيمان العميق في
النفوس، لم يَجْدُسِ الإنسانَ الذي يُنمِضُ عينه، أو حتى عينيه،
عن بعض العفويَّاتِ التي تقع في طريقه..

❧ مَسْحَةُ مَلِك

وكان عليه الصلاة والسلام يحبُّ الجمالَ، ويلاحظ بلاغةَ
الفصيحةِ الجزلة، وتهذباتِ الصوتِ الأخاذ، وتقاسيمِ الوجهِ
للافتكاح.

لم يكن تناسب الفسمات أمراً بعميضم عينه عنه، ولم يكن نصاعدُ النبرات مما يرى أن الاهتمام به هو اهتمام بأمور لا نستحقُّ بل زاد يختار أجمل الكلمات ليرصفَ بها أجمل ما وهب الله الناس من حوله، حتى يعلمَ البشرية النبي أوشكت على دخول مرحلة التحنيط أن الجمال رقمٌ يجب الالتفات إليه، وميزةٌ يجرُّمُ على الأرواح أن تتجاوزها دون توقيع ما.

تأخرت عائشة رضي الله عنها ذات ليلة، فاستبطنها النبي ﷺ، فلما عادت، سألها عن سرِّ تأخيرها، فأخبرته أن: «في المسجد رجلاً، ما رأيتُ أحداً أحسنَ قراءةً منه».

فهل تظنُّ أن النبي ﷺ سبغ نقطة، لا! إنه الجمال الذي بأسره، بأخذ داءه عليه الصلاة والسلام ويخرج مرعاً إلى المسجد؛ يريد أن يكتشفَ مَنْ هو صاحب ذلك الصوت الجميل! يقترب من المسجد والصوت ينداح في أجواء المدينة، ويزيد وضوحاً وسطوعاً، عرفه النبي ﷺ، وكفى لا يعرفه وهو أحد أفراد دار الأرقم بمكة، أحد المسلمين الأوائل؟! يمكث طويلاً يستمع (كما نصفُ عائشة)، ثم يعود ويخبرها أنه سالمٌ

(١) رواه أحمد، وقال عنه شعيب: حسن لغيره.

مولى أبي حذيفة، ثم يقول: «الحمد لله الذي جعل في أمّتي مثله».
 اننحدثُ عن اهتمامه عليه الصلاة والسلام، أم خروجه،
 أم طول مكثه مستمعاً، أم إعجابه، أم إنسانيته التي جمعت كلَّ
 ذلك الزخَم الجميل ١٩



بقول لأبي موسى: «لو رأيته وأنا أستمعُ إليك البارحة،
 لقد أونيّت مزماراً من مزامير آل داود»^(١).

إن تصنّع عدم المبالاة لا يصنّع العظماة؛ فالعظيم هو من لا
 تفوته التفاصيل المؤثرة، التي يجعل التعليق عليها الحياة أجمل،
 والأرواح أكثر طُمأنينة.

يصفُ عليه الصلاة والسلام جرير بن عبد الله البجليّ بأنَّ:
 عليه منحة ملك^(٢).

ونخبرنا أن جبريلَ ينزل بصورة دحية الكلبي.. مما يجعل

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

(٢) صحيح ابن حبان.

دُخْبَةٌ وَغَيْرَ دُخْبَةٍ يَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا الْاِخْتِيَارَ نَاجِمٌ عَنْ جَمَالِ دُخْبَةِ
الْكَلْبِيِّ^(١).

إِنَّ تَحَوُّلَ الْإِنْسَانِ إِلَى صَحْرَاءَ قَاحِلَةٍ لَا تُحْسُ، وَلَا تَهْشُ
لِلْجَمَالِ، وَلَا تَعْبُرُ عَنْ التَّفَانَاتِ الرُّوحِ، لَيْسَ شَيْئًا جَيِّدًا، فَضْلًا
عَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ مَنَازِعِ الرُّجُولَةِ، وَسَمَاتِ الْقِيَادَةِ!



(١) رواه الطبراني والبيهقي.

عِبْقَرِيَّةُ الْإِلَهَامِ

هل تَطْلُبُونَ مِنَ الْمُخْتَارِ مُعْجَزَةً؟
يَكْفِيهِ شَعْبٌ مِنَ الْأَمْوَاتِ أَحْيَاؤُهُ

عمرد غنيم



عبقريّة الإلهام

كان النبي ﷺ يعيش مع أصحابه بنفسية الأب، أو قُل: المعلم الملهِم، الذي يتأمّل طويلاً في صحبهِ واحداً واحداً، ثم يبرِّز في كل واحد منهم المعنى الذي إن أثير كما ينبغي، تفجّرت به طاقائهُ، وحولته إلى قوة دافقة.

كان يُبصِّر ذلك الفارس الشجاع، فيخبره بأن شجاعته مادرة. وتضاعف بذلك همته، ويغدو هزبراً بزأر في أوجه أعداء الإسلام.

ويرى ذلك الشاعر الفحل، فيعلمهُ أن شُكراً خاصاً أتاه من ملك الملوك على بيت قاله، فتتحوّل أحرف ذلك الشاعر إلى قذائف تُفصّ مضاجع أناس لا يرجون الله وقاراً.

وسمع ذلك التالّي المُجبد للقرآن، فباته بيته، ويُقرئه شيئاً من القرآن، فتمضي الأباُم، فغدو أشهر قراء القرآن عبر التاريخ.

وهكذا كان النبي ﷺ مُلهِماً، نافخاً رُوح الحياة في فلوب

مَنْ حَوْلَهُ، فَيُخْرِجُهُمْ بِذَلِكَ مِنَ الْهَامِشِ إِلَى الْمَتْنِ، وَمِنَ
الْأَنْفَعَالِ إِلَى الْفَاعِلِيَةِ!

لَقَدْ نَقَلَ مُوَاهِبُهُمْ مِنْ دَائِرَةِ الْمِيُولَاتِ الشَّخْصِيَّةِ، إِلَى حَقْلِ
النَّائِيرِ وَالْبِنَاءِ!

نَقَضَ عَنْ حَوْلِهِ الْعَادِيَّةَ، وَالْبَسْهَمَ ثِيَابَ الْعِظْمَةِ!
وَصَدَقَ الشَّاعِرُ حِينَ قَالَ:

هَلْ تَطْلُبُونَ مِنَ الْمَخْتَصِرِ مَعْجَزَةً؟
يَكْفِيهِ شَعْبٌ مِنَ الْأَمْوَاطِ أَحْبَاءُ

§ الشاعرون ١٩

قَرَأْتُ قِصَّةً فِي سِيرِ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ، فَأَذْهَلَنِي مَا لِهَذَا الْإِنْسَانِ
الْعَظِيمِ مِنْ قُدْرَةِ خَلْقَةٍ عَلَى فِعْلِ الْعَجَائِبِ فِي نَفْسِ أَصْحَابِهِ؛
تَقُولُ الْقِصَّةُ:

إِنْ قَافِلَةٌ حُجَّاجٍ انْطَلَقَتْ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يَهَاجِرَ
النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَ مَعَهُمُ السَّيِّدُ الْعَظِيمُ الْبِرَاءُ بْنُ
مَرْوَرٍ ؓ وَأَرْضَاهُ، فَلَمَّا بَلَغُوا مَكَّةَ، أَرَادَ الْبِرَاءُ أَنْ يَأْتِيَ النَّبِيَّ
ﷺ لِيَسْأَلَهُ عَنْ أَمْرِ مَا، فَأَخَذَ مَعَهُ ابْنَ أَخِيهِ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ

(وكان شاعراً)، فلما وصل إلى المسجد، سأل أحدهم عن النبي ﷺ، فهما لا يعرفاني، فسألها ذلك الرجل: أتعرفان العباس؟ فقالا: نعم، فقال: فهو جالس معي في المسجد..

فدخل المسجد الحرام فإذا هما بالعباس والنبي ﷺ بجواره، فذهبا وسلمًا، فسأل النبي ﷺ العباس: هل تعرفهما؟ فقال: نعم؛ هذا البراء بن معرور سيّد قومه، وهذا كعب بن مالك، فقال النبي ﷺ: الشاعر؟ يقول كعب بعد ذلك: فوالله، ما أنسى قول رسول الله ﷺ: الشاعر؟^(١)

ما أجمل الكلمات التي تملئها الرُّعودُ، ويكتبها المطرُ!

وكان يبرذاذ بفوح برائحة الغيوم، بملا نفس كعب بن مالك بعد كلمة: «الشاعر».

ليس ذكاءً، وإنما عبقرية فذة، وهداية نورانية، استطاعت أن تأتي بكلمة واحدة: «الشاعر» فتحوّلها إلى جزء لا يتجزأ من تاريخ كعب بن مالك.

وكان عليه الصلاة والسلام كان في تلك اللحظات، وهو بعد في مكة، يخطط لتفاصيل الحياة الفكرية في المدينة،

(١) ذكرها الذهبي في سيرة الصحابي البراء بن معرور.

وأنه سيحتاج إلى عددٍ من الشعراء ليُعبدوا صياغة الذَّهنية
المسلِّمة، وليطمسوا بالفضائل التي ستملئ بها أشعارهم شيئاً
من أضرار الجاهلية، فلم يَفُوتِ المناسبة التي يستطيع بها أن
ينقلَ شاعراً من هامش التأثير، إلى متن التأثير.

مما يَهْرُ كثيراً في شخصية النبي ﷺ: قدرته على قراءة
مكوناتك في جزء من الثانية، ثم قدرته أيضاً على انتخاب
خَصْلَةِ العَظْمَةِ فيك، فينفخها بثناء، أو اهتمام، أو بَلَقَتْ نظراً
فيحولك إلى عَظِيمٍ تحلُّ صفحة مهمة في سجلِّ النبوغ.

❦ الْمُنْبَسِرُ الْمَلَانِكِيُّ

وبما أننا أتينا على ذِكْرِ الشعر، فلنعرِّج على تلك الخامة
الفريدة، وذلك الصادح بالحق، وما الذي فعله النبي ﷺ معه،
وكيف استطاع إعادة تشكيل موهبته ليغدو الأوحى في فنّه،
والأبرز في بابِه!

يأتي النبي ﷺ إلى المدينة، فإذا بأرجوه جديدة، ومواهب
جديدة، ومعادن جديدة، تحتاج إلى إعادة تشكيل وقولبة،
بكيفية تضمن لتلك المواهب أن تتألق، وأن تتوجَّه لخدمة

الذين، والدُّود عن حياضه، فإذا بحسَّان بن ثابت، ذلك الشاعر الذي تبلورت موهبته قبل الإسلام بحدوة ليست باليسيرة، فبخرجه النبي ﷺ من وصف الناقة، والتغرُّل بالمحبوبة، والوقوف على الأطلال، ليغدو شعره كتيبة إعلامية تدكُّ الصرخ النفسي لكفار قُريش، فتجعله قاعًا صفصفاً لا ترى فيه عوجًا ولا أمتًا! ولكن كيف حدث ذلك؟!

بطلب النبي ﷺ من فرسان الشعر في المدينة أن يهجوا كفار مكة، لتغدو الكلمة سهماً يرمى به في سبيل الله، فبأبى الشعراء، فلا يرضى النبي ﷺ عن نبرة الهجاء التي في شعرهم؛ فهو عليه الصلاة والسلام أعلم بكفار قُريش، وبالذي ينكأ قلوبهم، وهذا الشعر الذي استمع إليه ليس من الخامة التي تناسب هذا الغرض!

فيرسل النبي ﷺ إلى حسَّان بن ثابت، فيأتي يدلِّع لسانه حماساً، ويقول شعرًا يصيب المَحْزَأَ ويكون على قُريش كَرَشَقِ النَّبْلِ، فيقول النبي ﷺ: «هجاهم حسَّان فشفئ واشتفى»^(١).

(١) رواه مسلم.

ونمضي الأبايم، فيقربُ النبي ﷺ مِنبَرُهُ الخاصَّ لحَسَّانَ
لِنَصْدَ عَلَيْهِ، وَلَا أَحَدَ يَصْعَدُ عَلَيْهِ إِلَّا حَسَّانُ! ويقول له:
«أَمْجُهِمْ وَرُوحُ الْقُدْسِ يُوْبِّدُكَ!»

إِنْ تَشْكِلَ صَلَصالُ النُّفُوسِ مِهْمَةً جَدُّ صَعْبَةً، وَلَا يُطِيقُهَا
إِلَّا أُولُو الْعَزَمِ مِنَ الْبَشَرِ! وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ سَيِّدَهُمْ وَلَا شَكَّ.

جَبْرِيلُ الَّذِي يَنْزِلُ لِلْمِهْمَاتِ الْخَاصَّةِ جَدًّا؛ مِثْلُ: أَنْزَالَ
الْوَحْيَ عَلَى الرَّسْلِ، أَوْ نَدَمِيرَ الْقُرَى الظَّالِمَةَ: يَأْتِ بِهَيْطُ
خِصْبَتِي لِأَجْلِ تَأْيِيدِ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ بِالْمَعَانِي وَالْكَلِمَاتِ
وَالْقَوَافِي!

فَحَوَّلْتُ تِلْكَ الْكَلِمَاتُ، وَذَلِكَ التَّأْيِيدُ الْخَاصُّ حَسَّانَ
إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي كَانَتْ قَوَافِيهِ أَوْفَعَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مِنَ النَّبْلِ؛
فَصَارَتْ قِصَائِدُهُ جُنُودًا، وَشِعْرُهُ غَزْوَةٌ مُبَارَكَةٌ، وَأَبْيَانُهُ سِهَامَاتُ
تَنْخَرُ مَعْنَوِيَّاتِ أَعْدَاءِ النَّبِيِّ ﷺ!

وَبَاتَ حَسَّانُ بَعْدَ ذَلِكَ مُوْتَقًا لِمُغَازِيهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
وَمَشَاهِدِهِ، حَتَّى إِذَا مَا فَرَأَتْ شِعْرُهُ كَأَنَّكَ حَاضِرٌ بِدَرَاءَ، وَأَحْدَا،
وَفَتَحَ مَكَّةَ، وَبَيَّنَّتْ تِلْكَ الْمَوْهَبَةُ الضَّائِعَةُ بَيْنَ وَصْفِ الرِّحْلَةِ
وَوَصْفِ الْمَرَأَةِ مَوْهَبَةً تَقْوُدُ صَاحِبَهَا إِلَى جَنَّاتِ الْخُلْدِ بِإِذْنِ اللَّهِ!

﴿ لِيَهَيِّكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ ﴾

يَحْدُثُ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ أَبِي بِن كَعْبٍ ؓ عَنْ فَصَّةَ ذَلِكَ
الْمَلِيحِ الْعَظِيمِ مَعَهُ، فَيَقُولُ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَا أَبَا
الْمُنْذِرِ، أَنْدَرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟».

لَيْسَ سَوْأًا عَابِرًا، إِنَّهُ السُّؤَالُ الَّذِي يَنْقُلُ الْمَسْؤُولُ مِنْ
الْمُطَفَةِ الرَّمَادِيَةِ إِلَى دَائِرَةِ الضَّوِّ، وَيَحْوِلُهُ مِنْ شَخْصٍ عَادِيٍّ
إِلَى شَخْصِيَّةٍ غَيْرِ عَادِيَّةٍ!

يَقُولُ أَبِي: فَقُلْتُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، قَالَ:
فَضْرَبَ صَدْرِي، وَقَالَ: «لِيَهَيِّكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ»^(١).

لَقَدْ نَمَّ إِعَادَةُ إِتْسَاجِ الرُّوحِ بِنَجَاحٍ، وَنَمَّ التَّحَوُّلُ وَفَقَّ
فَوَاعِدُ الْإِلَهَامِ!

لَقَدْ أَخْرَجَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ أَبَا الْمُنْذِرِ مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ إِلَى
الْعِبَرِ مَعَ الْقُرْآنِ، وَمَا زَالِ بِصَحْوِ وَيْنَامٍ مَعَ آيَاتِ الْكِتَابِ
الْعَزِيزِ حَتَّى جَاءَ الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ!

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

يخرج النبي ﷺ من بيته قاصداً بيتَ أبي بن كعب، في زيارة خاصة جداً زيارة تتضمن رسالة ذات أهمية عالية، فيطرق عليه الباب، فيخرج أبي فإذا بأدفا لحظات عمره تكون بانتظاره عند الباب، يقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ: لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا...!»^(١).

إن كلمة «اندهاش» تبدو متواضعة جداً إذا ما قارناها بما شعر به أبي ﷺ، يقول أبي مختصراً سبب ذلك الاندهاش الغريب:

اللهُ سَمَّاني لك؟

أبي: ذَكَرَنِي بِاسْمِي، اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ: أَبِي بْنُ كَعْبٍ؟!

فيقول النبي ﷺ: «نَعَمْ، اللهُ سَمَّاكَ لِي».

فِيكَ أَبِي..

ولماذا لا ييكِّي أبي؟

ماذا صَعَتِ تلك الكلمة، وتلك الضربة التي على صدره،
و«نعم سَمَّاكَ»؟ ماذا فَعَلْتَ بأبي؟

(١) صحيح ابن حبان.

لقد صَنَعَتْهُ تِلْكَ اللَّحْمَاتُ الْمَلْهِمَةُ مِنَ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ،
وَأَنْشَأَهُ إِنْشَاءً خَاصًّا، وَحَوَّلَتْ خَطًّا حَيَاتَهُ مِنَ الْأَفْقِيِّ
الْأَرْضِيِّ، إِلَى الْعَمُودِيِّ السَّمَاءِيِّ.

❧ حَتَّى أَوْلَتْكَ

بل حتى أولئك الذين يخفضون رؤوسهم في مجامع القوم،
ريوارون عيبًا في شخصياتهم، وإعاقةً تصبُّغُ أَوْجُهُهُمْ بِحُمْرَةِ
خَجَلِهِ بُتَيْلِ الْبَرِّ بِرُوحَةِ الْعَظِيمَةِ، ثُمَّ يَتَفَخُّ فِي ذَلِكَ الْعَيْبِ
تَحْفِيزُهُ، فَلَا يَطُولُ زَمَنٌ حَتَّى يَغْدُوَ ذَلِكَ الَّذِي يَخْفِضُ رَأْسَهُ
رَافِعًا لَهُ، وَتَحْوِلُ الْبُدَّ النَّبَوِيَّ الْحَانِيَّةَ ذَلِكَ الْعَيْبَ إِلَى بِيْرَةٍ،
وَتِلْكَ السَّنْبَلَةُ إِلَى تَمْدَحَةٍ!

فهذا صفوانُ بن معطلٍ ؓ يستثمر النبي ﷺ يُقَلِّ نومه ليكونَ
دائمًا في آخرِ الرُّكْبِ، فيحملُ أيَّ متاعٍ سَقَطَ مِنَ الْجَيْشِ، وَكَانَ هُوَ
الرَّجُلُ الَّذِي وَجَدَ فِي طَرِيقِهِ عَائِشَةً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وهذا عبدُ اللَّهِ بن أمِّ مكتومِ الْأَعْمَى، يَغْدُو مُزْدَنَ النَّبِيِّ ﷺ،
وَالرَّجُلُ الَّذِي يَسْتَخْلِفُهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمَدِينَةِ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ.

ويأتي على بعضٍ مَن بِهِمْ مَنَقَصَةٌ مَا، فَيَلْفِتُ أَنْظَارَ مَنْ حَوْلَهُ
إِلَى أَشْيَاءَ جَمِيلَةٍ فِي رُوحِهِ؛ لِيَمْحُوَ الْجَاهِلِيَّةَ الْعَالِقَةَ بِأَطْرَافِ

نفوسهم، ويُذَيِّبُهَا فِي كَاسٍ مِنَ الْإِيمَانِ.

فهذا عبدُ الله بن مسعود، تكشف الريحُ ثوبه، فيضحك الناسُ لدَقَّةِ سَاقِيهِ، فيحوِّلُ الرجلُ المَلِهُمُّ تلكَ السَّاقِيَيْنِ إِلَى مِثَارٍ فَخِرٍ وَاعْتِرَازٍ عِنْدَ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ يَقُولُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ جَبَلٍ أُحْدِثُ^(١)».

وهذا جُلَيْبٌ، ذُو الْوَجْهِ الَّذِي لَا يَرْتَاحُ لَهُ النَّاسُ، يَقِفُ النَّبِيُّ ﷺ وَقْفَةً خَاصَةً عِنْدَ اسْتِشْهَادِهِ، وَيَقُولُ لِلنَّاسِ: «وَلَكِنِّي أَفِيدُ جُلَيْبًا^(٢)»؛ لِبَقِيَّةِ النَّاسِ أَنَّ الْقَضِيَّةَ قَضِيَّةُ أَرْوَاحِ مُؤْمِنَةٍ. لَا أَرَجُهُ جَمِيلَةً فَتَضَوَّلَ لَدَيْهِمْ قِيَمَةُ الْوَسَامَةِ وَالتَّنَاسُقِ الْحَلْقِيِّ فِي مِقَابِلِ تَصَاعُدِ قِيَمَةِ الْقَلْبِ الَّذِي يَنْبِضُ بِهَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ.

وهذا زَاهِرٌ، رَجُلٌ مِنَ الْبَادِيَةِ، يُشَبِّهُ رِمَالَ (النُّفُودِ)، يُقْبَلُ إِلَيْهِ وَبِحُتْضَنِهِ أَمَامَ جَمْعٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، يُوَدِّ كُلُّ وَاحِدٍ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي عَانَقَهُ النَّبِيُّ الْعَظِيمُ، ثُمَّ يَقُولُ مَا زَحَا: «مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ؟ مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ؟^(٣)..» فيقول زَاهِرٌ: إِذْنِ تَجِدَنِي كَاسِدًا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فيقول النَّبِيُّ ﷺ: «وَلَكِنَّكَ عِنْدَ اللَّهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ»، هُنَا

(١) صحيح ابن حبان.

(٢) رواه البيهقي على شرط مسلم.

(٣) خبر زاهر أخرجه أحمد وغيره، وهو على شرط الشيخين.

نَفَثَتْ بِقَايَا الْجَاهِلِيَّةِ تَمَامًا، وَتَهَبُّ نَسَائِمُ: «إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
أَنْفَاكُم»؛ لَتَبْعِثِرَ هَشِيمَ الْجَاهِلِيَّةِ فِي صَحْرَاءِ النَّسِيَانِ.

❧ الْأَبْرَاجُ الْمَشِيدَةُ

وَمَا زَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَنْثُرُ كَلِمَاتِهِ الْمُلْهِمَةَ، الَّتِي نَحْوُلُ ذَلِكَ
الطِّينَ الْبَشْرِيَّ إِلَى أَبْرَاجٍ مَشِيدَةٍ، فَيَرْجِعُ إِلَيْهَا الْبَصْرُ فَلَا بَرَى
فُطُورًا.

فَيَرَى اهْتِمَامَ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ بِالْعِلْمِ، فَيُوقِعُ لَهُ بَأْنَ: «مُعَاذًا
يَسْبِقُ الْعُلَمَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِرَتْوَةٍ»^(١).

وَيَرَى انْكِبَابَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ عَلَى تَعَلُّمِ الْفَرَائِضِ، فَيَهْمِسُ
بَأْنَ: «أَفَرَضَكُمْ زَيْدٌ»^(٢).

وَيَرَى قَلْبَ أَبِي عُبَيْدَةَ الْمَعْجُونِ بِالْأَمَانَةِ، فَيَقُولُ عَنْهُ: «أَمِينٌ
هَذِهِ الْأُمَّةُ»^(٣).

وَتَبْهَرُهُ بِسَالَةُ طَلْحَةَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَيَعْلَقُ عَلَيْهِ وَسَامٌ: «مَنْ سَرَّهُ

(١) رواه ابن عساکر في تاريخ دمشق، وصححه الألباني بجموع طرقه.

(٢) رواه أحمد والنسائي، وحسنه ابن حجر في الفتح.

(٣) رواه أحمد، وصححه شبيب.

أَنْ يَنْظُرَ إِلَى شَهِيدٍ يَمْنِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى طَلْحَةَ
بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ^(١).

وَيَسْأَلُهُ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ أَسْعَدِ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،
فَيَزِيدُهُ نَهْمَةً فِي الْعِلْمِ بِقَوْلِهِ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ إِلَّا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا
الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ»^(٢).

وَيُسَمِّرُ بِصَدَقِ أَبِي ذَرٍّ الَّذِي تَجَاوَزَ كُلَّ صِدْقٍ، فيقول عنه:
«مَا أَقَلَّتِ الْعَبْرَاءُ مِنْ ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرٍّ»^(٣).

وَيَلْمَحُ سَيْفَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ الَّذِي سَلَّطَهُ اللَّهُ عَلَى الْأَعْدَاءِ،
فَيَقُولُ عَنْهُ: «سَيْفٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ»^(٤).

وَيَنْظُرُ فِي قَلْبِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمَرَ مِنَ الزَّكَاةِ وَالنِّفَاءِ، فيقول:
«نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ؛ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ»^(٥).

يقول عنه أصحابه: فَكَانَ ابْنُ عَمَرَ بَعْدَهَا لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ
إِلَّا قَلِيلًا

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه الحاكم بسند صحيح.

(٤) رواه الترمذي، وصححه الألباني.

(٥) رواه البخاري ومسلم.

وهكذا يسير بين أصحابه، ويلقي بكلمات الشفاء والشجيع؛
ليصنع ذلك الجيل الذي من الصعب، بل المستحيل أن يتكرر،
الجيل الذي لا وجود فيه لشخص لا ميزة له!

لم يَحْرِصْ عليه الصلاة والسلام على إخراج أحد من
أصحابه من حِيزه الذي خَلَقَهُ اللهُ فيه وله، وإنها وظفه، وأنعش
خصائصه، فباتت ثَمَرٌ وتُدور حول معاني الفضيلة، وحول
حماية جناب الدِّين، وحول الدفاع عن نبيِّ الإسلام الأعظم.

وهكذا تسمرُّ هذه الإشرافات التي صَنَعَ بها جيلًا لم ينكُرْ
في التاريخ، وهي تُنبئُ عن شخصية فائدة، تستطيع أن تُبَكِّ
صَلْصال الأرواح، ثم تَهْكَلُهُ وَفَقَّ مفايس الجودة العالية،
ليغدو من حوله جبالًا في الجبال، وبحارًا في البحار.



رَحِيقُ الْبِرَاءَةِ

«خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي:
«أَفٍّ» قَطُّ، وَمَا قَالَ لَشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لَمْ صَنَعْتُهُ؟
وَلَا لَشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: لَمْ تَرَكْتُهُ؟!»

أنس بن مالك

رحيق البراءة

قد نظنُّ وأنت تقلُّبُ أوراقَ سيرة النبي محمد ﷺ أن تلك التفاصيل الساخنة، وتلك الأحداث المتتابعة: ستملاً حياتهُ لدرجة سيكون صعباً معها أن يتحدثَ في يومٍ من الأيام مع صبيٍّ، أو أن تسيلَ دموعُهُ بسبب طفلٍ يجودُ بنفسه، أو أن يداعبَ صغيراً في السن!

ستحتاجُ عند تفلييك لأوراقِ أيامِ هذا النبي الأعظم: أنه لا يكادُ يكونُ هناك شيءٌ من النبيلِ إلا وله في حياته مكانٌ ومكانة، بل إنك إن دققْتَ فيه، اجتالَنتُك مشاعرُ تجعلك نظنُّ أن هذا الخلقَ أو هذه الصفة هي الأهمُّ والأبرز، بل هي التخصُّصُ الوحيد الذي اعتنى به النبي ﷺ اعتناءً خاصاً.

وفي هذه الأسطر، سترى النبي وهو بخوص الحياة بنفاصيلها، فكما أنه يتحمَّلُ مهامَّ نشرِ الدين بكل ما يكتنفُ ذلك من أتعابٍ وإجهادات، فهو كذلك يجعلُ الطفلَ الصغير، ويُنَاقِشُ الرعاةَ، ويمسحُ رؤوس الأيتام.

❧ اذْهَبَتْ؟

من أشهر أطفال الصحابة: «أنس بن مالك»؛ فقد مكث خادماً عند النبي ﷺ عشر سنين، فنقلَ صُوراً من تعامله عليه الصلاة والسلام مع الأطفال، تجعل النظريات التربوية تبدو بدائيةً يازاء ما كان يعملُه مع أصغر طفلٍ في المدينة!

يفاجئُ النبي ﷺ أصحاب الأوامر والنواهي بأسلوبٍ نسفُطُ فيه تلك الأوامر والنواهي! يقول أنس: "خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سَنِينَ، فَمَا قَالَ لِي: «أَفْ» قَطُّ، وَمَا قَالَ لشيءٍ صَنَعْتُهُ: لَمْ صَنَعْتُهُ؟ وَلَا لشيءٍ تَرَكْتُهُ: لَمْ تَرَكْتُهُ؟".

لا يمكنُ أن يكون أنس ﷺ ملكاً لا يخطئ! من المؤكد أن هناك ما يندُّ عنه؛ فهو طفلٌ، والطفولة مقترنةٌ بشيءٍ من الأخطاء العابرة، والتعثرات اليسيرة، فتركَّ الرجلُ النبيل تلك الأخطاء والتعثرات فصقلَ شخصيةً أنسٍ، وتصنعَ نظرتَه الخاصة، فلم يعتقه في يوم، بل لم يُبِد ملاحظةً على تصرُّفاته الطفولية!

وفي إحدى المرات، يرسلُه لحاجة، فيخرجُ ويلقَى في طريقه

(١) رواه الترمذي، والخاريزمي، ومسلم بنحوه.

صبيانًا يلعبون، فيشتغل عن حاجة النبي ﷺ بأولئك الصبيان، فيلعب معهم كما تفعل الطفولة دائمًا، لا شيء يثنّيها عن اللعب، ولا أهمية لشيء تفوق أهمية المرح، فيخرج النبي ﷺ فيراه وقد اصططح بالسعادة، فيذهب إليه من خلفه، ويُمسك بقفاه، ثم يقول له: «يا أنيس، أذهبت حيث أمرتك؟»، فيقول: نعم أنا أذهبُ يا رسول الله.

هل هذا وقت أن يدلّله به «أنيس»؟ أهذا وقت أن يُمسكه من قفاه بلطفٍ؟!!

لدى هذا الرجل النبيل وقتٌ لفعل كل جميل، وقادرةٌ عجيبة على أن يكونَ إنسانًا راقياً في كل مواقف حياته، وأن يكونَ أنيقاً لدرجة بلججنا معها الذهول!

❧ يا أبا عمير

وكان عليه الصلاة والسلام يجذُّ في صخب الحياة وقتاً كافياً ليداعب أولئك الصغار المنشرين في أزقة المدينة، وأن ينحني ليمسح على رؤوسهم، وأن يزرع الابتسامة في نفوسهم الصغيرة!

انقذ النبي ﷺ مرةً أبا عُمَيْر (أحد صبيان المدينة)، فسأل عنه، فقبل له: مات عصفورُهُ الصغير، فذهب إليه معزّيًا، وقال له: «يا أبا عُمَيْر، ما فعلَ النُّعَيْرُ؟»^(١).

حتى المموم الصغيرة كان يستطيع أن يجذ في قاموسه كلمات تناسبها، ولمسات تُهددها!

يقول أنس: «ربما قال لي النبي ﷺ (عمازحًا): يا ذا الأذنين»^(٢).

إنها العذوبة التي لم يسمع عنها كثيرٌ ممن يظنُّ الحياة لا تستقيم إلا بالصرامة!

كان يقول عن الحسن والحسين عليهما السلام: «هما رَئِحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيَا»^(٣).

يلتقط أبو مُزْبِرَةَ لقطةً نادرة، امتلأت بشيئين: بالمغفوة، والعظمة؛ يقول عليه السلام: «كان رسولُ الله ﷺ يَدْلَعُ لِسَانَهُ لِلْحَسَنِ بن علي، فبَرَى الصَّبِيَّ حُمْرَةَ لِسَانِهِ، فَيَهَسُ إِلَيْهِ»^(٤).

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه.

لا تستغرب من الرجل الذي كان يقف كالأسد في كَيْدِ
المعارك، ويرفع سيفه في وجوه وحوش البشر، أن يكون هو
نفس الرجل الذي يدلع لسانه للحسن، إنه الرجل النبيل
الذي جعل الحب في متناول الجميع.

عَنْبُ الطائف

كان الأطفال يعرفون جيداً أنهم مع إنسان يفهم مشاعرهم،
ويعرف جيداً احتياجاتهم؛ لذلك قهم لا يهربون منه في
الطرق، ولا يكذبون عليه إن مادّتهم طفولتهم ذات يوم.

يحدثنا النعمان بن بشير عن قصة حدثت له وعمره لم
يتجاوز ثمانين سنوياً؛ يقول: أهدي لرسول الله ﷺ عَنْبٌ من
الطائف، فقال: «خُذْ هَذَا الْعُنْقُودَ فَأَبْلِغْهُ أُمَّكَ»، قال: فأكلته
قبل أن أبلغه إياها، فلما كان بعد ليالٍ، قال: «ما فعل العنقود؟
هل بلغت؟»، قلت: لا، فسأني عُذْرًا^(١).

هكذا بكل بساطة، لا دروس في الأمانة، ولا محاضرات
في أهمية طاعة الكبار، يقرص أذنه بحنان، ويلقبه عُذْرًا كما

(١) رواه ابن ماجة.

يفعل الرحاء مع الأطفالِ الأسقياء، أولي الملامح البريئة جدًّا،
والنصرّفات اللذبة جدًّا.

❧ بل يستحيل..

نائبه طفلةٌ صغيرة، اسمُها أمانة بنت العاصِ، وهو يصلي،
فتعلّقُ بعاتيقه، فإذا سجد وضمَّعها، وإذا قام حملها^(١).

إذا أردت أن تُسيعَ النبَلُ بين الناس، فلا تحدّثهم عن الحنان
والرحمة والأبوة؛ يكفي أن تحدّثهم عن ذلك الرجلِ النبيلِ
عليه الصلاة والسلام.

يذهب إلى الصلاةِ ومعه الحسنُ والحسين، فيصلي بالناس،
فَيُطِيلُ إحدى السَّجَدَاتِ، ثم بعد الصلاة يسأله الصحابةُ عن
تلك السجدة الطويلة، ويخبرونه أنهم ظنّوا أمرًا ما عرَّضَ له،
أو أن وحيًا ما أوحى إليه، فيخبرهم - بأبي هو وأمِّي - أن
القضيةَ أيسرُ من كل هذا: «كلُّ ذلك لم يكن؛ إن ابني هذا
ارتحلني، فكَّرِهْتُ أن أعجلَه حتى يقضي حاجته»^(٢).

(١) الخبر في البخاري ومسلم.
(٢) رواه أحمد وغيره بالفاظ متفاربة.

هنا يمكنك أن تندهش إن شئت! فهذه صلاة، وهؤلاء
 أناس جاوزوا ليصلُّوا. ومع ذلك فالطفولة تتمدد كيفما
 شئت، لا شيء يعكّر صفوها الجميل، بل إنه عليه الصلاة
 والسلام لم يسمح لحفيده أن يرتحل في الصلاة فحسب، بل
 طوّل في السجود حتى تيمّ لذلك الطفل سعادته؛ فيروى
 حناناً، ويمتلئ أماناً.

كان عليه الصلاة والسلام يستخدم الطفولة الجميلة لينتزع
 بها الوحشية من قلوب البشر شوكة شوكة، يجلس معه أحد
 الأعراب، فيدخل في هذه الأثناء الحسن عليه السلام وهو بعد طفل
 صغير، فيقبله النبي صلى الله عليه وسلم، فيسأل ذلك الأعرابي بفضافة:
 أتقبلون الأطفال؟ إن لي عشرة منهم ما قبلتهم!

يظن أن ذلك من بروتوكولات الرجولة! ويعتقد أن الحياة
 أضيقت من أن تتحمل قبلة على خد طفل! فيأتي معلّم الناس
 الحنان ليقول لذلك الأعرابي: «أملك أن نزع الله الرحمة من
 قلبك؟»^(١).

(١) رواه البخاري ومسلم.

إنها الرحمة التي جعلت رحيق الإنسانية المتمثل في الأطفال
يشكّل جزءاً من اهتمام ذلك القلب الكبير.

كان يحبهم، ويسمّيهم، ويلقّب بعضهم، ويداعبهم، ويحنّوهم
عند ولادتهم، ونسبل دموعه عند لقطات الوجع التي نصيبهم.

إنه الرجل النبيل، الذي اتسع قلبه لكل ما هو إنساني،
وبات أيقونة الإنسان العظيم، الذي لا يصعب أن يتكرّر، بل
يسنحّل!



رائحة المطر

«لَا قَوْلَ شَيْءٍ يُضْحِكُ النَّبِيَّ ﷺ»

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الشيخ الإسلام

علاء الدين

رائحة المطر

لما بعث الله نبيُّه عليه الصلاة والسلام رحمةً للعالمين، لم يُرِدْهُ سبحانه أن يكون إصرًا وغلًّا على البشرية، بل أرادَه أن يكون نسيمًا يهبُّ عليهم بحنانِه ورحمته، أرادَه أن يكون جمالًا وكمالًا وجلالًا تشوِّقُ إليه الأرواحُ؛ فجاء وجاءت معه الابتسامَةُ؛ ذلك السُّخْرُ الذي يجعل النفوسَ تهفو، والأرواحَ تَجِنُّ، والأفئدةَ تحفُّق.

كان عليه الصلاة والسلام بشامًا.. ينثرُ ابتساماته وضحكاته بعادبةٍ لا تُشبهُها عادبةٌ، وكأنه يريد أن يقول للناس: كونوا كما أنتم، اضحكوا، ابتسموا.. فالحياة سوداءٌ دون قهقهاتٍ بريئة، والأزقة ضيقة جدًا دون ملامحٍ مشرقة، والنفوس متعبة دون عادبةٍ تَدفن التمثيلَ الزائف، والتزويقَ الكاذب، والتصنعَ البارد الباهت.

﴿هتَمَطَرُ الْحَيَاةِ﴾

قال عمرُ بن الخطاب ذاتَ يومٍ وقد رأى كدرًا يعلو وجهَ نبيِّ الله: «لأقولنَّ شيئًا يَضجُكُ النبيُّ ﷺ».

(١) القصة في مسلم.

عَجِبُوا مَا أَجَلُهُ مِنْ إِنْسَانٍ يَعْرِفُ مَنْ حَوْلَهُ مَفْتَاخَ
 ابْنَسَامَتِهِ، بَلْ يَعْرِفُونَ أَنَّهُ يَبْسُمُ وَيَضْحَكُ حَتَّى تَبْدُو نَوَاجِدَهُ.
 إِنْ الذُّهُولَ يَسْحَبُ كَرْسِيًّا ثُمَّ يَجْلِسُ إِذَا هَذَا الْعَظِيمِ
 وَيَنَاقِلُ مَلَائِكَةً!

قُولُوا لِلْمُنْجِهَيْنِ، أُولَئِكَ الذِّبْنَ يَعْقِدُونَ بَيْنَ حَوَاجِبِهِمْ
 لِإِشَاعَةِ الْهِيمَةِ فِي قُلُوبِ مَنْ حَوْلَهُمْ: لَقَدْ جَاءَ مُحَمَّدٌ، وَانْتَبَهَى
 مَفْعُولٌ هَيْتَكُمْ الزَّائِفَةُ! جَاءَ مُحَمَّدٌ؛ فَانصَرِفُوا.
 جَاءَ الرَّجُلُ الَّذِي يَنْتُرُ الْإِبْنَسَامَةَ فِيمَنْ حَوْلَهُ، فَتَرَاهُ
 الْأَرْوَاحَ.

بِقَوْلِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ (ؓ): «مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
 مِنْذُ اسْلَمْتُ إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِهِ»^(١).

أَيُّ دَفْعٍ كَانَ يَسْتَشْعِرُهُ جَرِيرٌ وَالنَّبِيُّ الْأَكْرَمُ يَلْقَاهُ فِي ذَهَابِهِ
 وَلِيَابِهِ بِإِبْنَسَامَتِهِ، فَيُطْعِرُهُ فِي رُوحِهِ الْحَيَاءِ؟

وَيَأْتِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ (ؓ) يُدْلِي بِشَهَادَتِهِ
 الْغَرِيَةِ، وَهُوَ الرَّجُلُ الَّذِي عَاصَرَ مَنَاتِ بِلِ الْأَوْفِ الْبَشَرِ،
 وَخَبَرَ طَبَائِعَهُمْ، وَرَأَاهُمْ فِي رِضَاهُمْ وَغَضَبِهِمْ، فَيَقُولُ: «مَا

(١) البرصبري في إتحاف المهرة، ورواته نقات.

رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(١).

إِذَا، مَا قِيَمَةُ تَصْنُوعِ الْمَهَابَةِ، وَتَقْطِيبِ الْجَبْهَةِ، وَهَذَا أَهْيَبُ
إِنْسَانٍ تَكَادُ تَكُونُ الْإِبْتِسَامَةُ مَلَاذِمَةً لِقَسَمَاتِ وَجْهِهِ الْوَضِيءِ؟^(٢)
وَهَذَا سِمَاكَ بِنِ حَرْبٍ، تَابِعِي، أَرَهَقَ الشُّوقُ إِلَى الْحَبِيبِ
مُحَمَّدٍ ﷺ فَوَازَدَهُ، يُقْبَلُ عَلَى جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، يَرِيدُ أَنْ يُشْبَعَ
أَشْوَاقُهُ، فَيَسْأَلُهُ: أَكُنْتُ تَجَالِسُ النَّبِيَّ ﷺ؟ فَيَجِيءُ الْجَوَابُ مِنْ
جَابِرٍ صَادِقًا وَمِهْيَبًا أَعْمَاقُ أَعْمَاقِهِ: «نَعَمْ كَثِيرًا».

وَمَا أَحْرَقَ «كَثِيرًا» هَذِهِ عَلَى نَفْسِ سِمَاكَ بِنِ حَرْبٍ، وَكَأَنَّ
شَبَابًا فِي دَاخِلِهِ يَقُولُ: وَدِدْنَا لَوْ ظَفِرْنَا بِقَلِيلٍ!

ثُمَّ يَرِيدُ جَابِرُ أَنْ يُلْحِصَ «كَثِيرًا» تِلْكَ فِي وَمُضَةٍ خَاطِفَةٍ،
تُخْتَصِرُ عُمرًا قِضَاءً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَا يَجِدُ إِلَّا الْإِبْتِسَامَةَ عُنْوَانًا
لِذَلِكَ الْعُمرِ الْحَافِلِ بِالْجَمَالِ؛ يَقُولُ ﷺ: «كَانَ لَا يَقُومُ مِنْ مِصْلَاهُ
الَّذِي بَصَلِي فِيهِ الصَّبْحُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، فَإِذَا طَلَعَتْ قَامَ،
وَكَانُوا يَنْحَدِثُونَ، فَيَأْخُذُونَ فِي أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَيَضْحَكُونَ..
وَيَتَبَسَّمُونَ»^(٣).

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه مسلم.

لم يكن الطيب المطيب بنهاهم عن الأحاديث التي تدور
تفاصيلها حول أيام الجاهلية، وما كان فيها من طيش ونزق!
بل كان يشاركهم بابتسامته الحبيبة، وكأنه توقيف رضا، وختم
موافقة على العادية، وعدم أخذ الحياة بتكلف.

❧ فكرة الابتسامة

والابتسامة فوق كونها خصلة نبوية، وطبيعة محمّدية، لا
يمكن فصلها عنه عليه الصلاة والسلام، إلا أنها تنبع أيضًا
من فكرة مُفَنِّعة، يختصرها النبي ﷺ في قوله: «إنكم لن تسعوا
الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه، وحسن
الخلق»^(١).

فهو عليه الصلاة والسلام لم يكتفِ بأن جعل الابتسامة
جزءًا لا يتجزأ من ملامحه؛ فقد عَلِمَ أن هناك من الناس من
تقصه موهبة الاقتناص، والتمثل التلقائي؛ فانتقل من الشكل
الجمالي المقتنع للابتسامة إلى المعنى الضمني؛ وهو احتواء الناس
وكسبهم؛ فسَطَّ الوجه هو التفسيرُ شبه الحرفي للابتسامة.

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي التَّرْغِيبِ، وَحَثَّ الْأَبَا.

ولهذا؛ فقد كان النبي ﷺ يَحْتَظُّ الأرواحَ حَظْفًا، ولا يتمالك القادمُ إليه نفسه حتى يغدو أحدَ أتباعه؛ ينهل من العلم، والإيمان، والابتسامة.

❧ فِي أَحْلِكَ الظُّرُوفِ

وإذا أردت أن أحدثك بالعجائب، فسأحدثُ عن فضالة بن عُمر اللّيثي، رجل جاء لمهمة صعبة، كانت مهمته اغتيال النبي ﷺ! وقد كان متيقنًا الدور الذي جاء لأجله، لدرجة أنه انتحل شخصية الرجل المسلم، الذي أتى لأجل أن يغفلَ ذنوبه بجوار الكعبة المشرفة، وها هو ذا يقترب شيئًا فشيئًا من النبي ﷺ، ويظهر ملامح المتخشع المتبتل، الذي أذهله ذكرُ الله عما حوله، فلما انفصلت المسافات بينه وبين النبي ﷺ، وبدءَ متمكنة من خنجره، التفت إليه النبي ﷺ وقال له متسائلًا: فضالة؟ فيردُّ بصوتٍ خاشع: نعم فضالة يا رسول الله، فيسأله النبي - ولعله كان ينظرُ إلى عينيه -: ماذا كنت تحدثُ نفسك؟

فيقول فضالة: لا شيء، كنت أذكرُ الله!

لا شيء! أيعقل أنه لا شيء يا فضالة؟

والمعركة التي أضمرتَها في داخلِك، ما هي؟ ورائحة الموت
 المنبعثة من جسدك، ما الذي أتى بها؟ والألحان الجنازوية التي
 نكلُّ خطواتك، من الذي يعزفها الآن؟ يقول فضالة: فَضَحَكَ
 النبي ﷺ، ثم قال: استغفر الله.. ثم وضع يده على صدري..
 يقول: فوالله، ما رَفَعها حتى ما مِن خَلقِ الله شيءٌ أَحَبَّ إليَّ منه^(١).
 ليس سهلاً أن تُبَصِّرَ حرباً قادمة إليك فتَضَحَكَ لها! أن
 ترى الجبوش بين أنثائها التَّفْعُ فتبتسم.. ولكنه محمداً!
 ما إعرابُ جملة «فضحك النبي» في هذه القطعة الاغتيالية
 المخيفة؟

ما موقعُ تلك الضحكة الفريدة من الإعراب؟
 ما المعنى الذي خرَّجَ من خلالها؟
 وكيف يمكن لفضالة تفسيرُ ذلك الضحك النبوي العذِّبِ
 في هذا الموقف النادر؟
 إنها النفسُ التي باتت أقوى من الاغتيالات، وأشجَع من
 السيوف، وأبعدَ الشمس!

(١) هناك من يصفقُ هذه الفصحة، ولكنها بما يذكره أهل السير.

﴿ تحت المطر ﴾

وهنا ابتسامة برائحة المطر، وبجمال الغيوم، يحدث عنها أنس عليه السلام، فيقول: أصاب أهل المدينة قحطٌ على عهد رسول الله ﷺ، فبينما هو بخطبنا يوم الجمعة، إذ قام رجلٌ، فقال: يا رسول الله، هلك الكراعُ، هلك الشاءُ؛ فادعُ الله أن يسقينا، فمدَّ يديه ودعا، قال أنس: وإن السماء لمثل الزجاجة، فهاجت ربيعٌ، ثم أنشأت سحابةً، ثم اجتمعت، ثم أرسلت السماء عزاليتها، فخرجنا نخوضُ الماء حتى أنينا منازلنا، فلم يزل المطرُ إلى الجمعة الأخرى، فقام إليه ذلك الرجلُ، أو غيره، فقال: يا رسول الله، تهدمت البيوتُ؛ فادعُ الله أن يحبسَهُ، فبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: «حوالينا ولا علينا»، فنظرت إلى السحاب يتصدعُ حول المدينة كأنه إكليلٌ^(١).

لماذا يتبسّمُ؟

ما الرمالة التي يريدُها أن تصل؟

تُرى ما حجمُ الجمال الذي امتلأت به رُوحه فبات لا يستطيع أن يوارى ابتساماته العذبة؟

(١) رواه البخاري ومسلم.

حتى في اللحظات التي يظنُّها أهلُ الفِطَاظَةِ مَوْغِلَةٌ في الجِدَّةِ، ويتوقعون أن التزمَّتْ والملاحِمَ الحَجَرِيَّةُ هي الأليقُ بها! حتى في هذه اللحظات، كان يتحدثُ بملاحِمِهِ المَبْسِمَةِ، ويدفن صَحْبَ المَوْقِفِ تحت عَيْنِيهِ اللَّئِيْنِ أَخَفَّتْهُمَا رِشَةُ الْإِبْتِسَامَةِ بِأَلْوَانِهَا الزَاهِيَةِ.

﴿يَوْمُ الْاِثْنَيْنِ﴾

وما زالت الْإِبْتِسَامَةُ هي الشَّفَرَةُ التي فتح بها النَّبِيُّ ﷺ قُلُوبَ النَّاسِ، وَالرَّقْمَ السَّرِّيَّ الَّذِي دَلَّفَ بِهِ إِلَى أَرْوَاحِهِمْ طَوَالَ حَيَاتِهِ، بَلْ وَحَتَّى قُبِيلَ مَوْتِهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى السَّلَامِ؛ فَقَدْ كَانَتْ الْإِبْتِسَامَةُ لُغَتَهُ، وَطَلَاقُ الْوَجْهِ نَسِيمَهُ الَّذِي يَهْبُ بِهِ عَلَى أَرْوَاحِ صَحْبِهِ الْكَرَامِ.

يقول أنسٌ ؓ: «بَيْنَمَا الْمُسْلِمُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ مِنْ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ، وَأَبُو بَكْرٍ يَصَلِّي بِهِمْ، لَمْ يَفْجَأْهُمْ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ كَشَفَ سِتْرَ حَجَرَةِ عَانَشَةٍ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ فِي صَفْوَفٍ.. ثُمَّ تَبَسَّمَ»^(١).

صَغَّ خَطَاً تَحْتَ كَلِمَةِ «يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ» .. أَتَدْرِي مَاذَا يَرِيدُ أَنْ

(١) الفصحة في البخاري وغيره.

يقول أنس بكلمة «يوم الاثنين»؟!

إنه يريد أن يقول: إن تلك القصة حدثت في نفس اليوم الذي مات فيه النبي ﷺ.

حتى والآلام تنهشهُ، والحمى تهدُّ جسده، والموت يتراءى له: لم تفارقة الابتسامة بأبي هو وأمي!

ما مقدار الجمال الذي يحيط بقصة محمد ﷺ؟

كيف استطاع أن يحوّل الابتسامة إلى جزء لا ينجزاً من سيرته الذاتية، وإلى إنجاز من إنجازاته في الحياة؟

كيف تغلّت على لغة الصحراء، واستطاع أن يطمس وجه الخبثة المكفهر، ويمحو غيبة الجاهلية وتعاطفها؟

كيف وضع النقطة الأخيرة في سجل الفخر الكاذب، والخيلاء المصطنعة، وابتدأ السطر الجديد في إنسانية الإنسان؟

أي ثبل ضمّنه سيرته؟ وأي طهر حوته روحه؟ وأي ابتسامة كانت ابتسامته؟!



وأظلمت المدينة

«لَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي
مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ»

أنس بن مالك ؓ

وأظلمت المدينة

ليس سهلاً أن تنطفى الشمعة الأخيرة، فيعود الظلام
لمزاولة مهنته!

ليس بسيطاً أن تُلغى التّبضّات من قلوب عرّفت لتوّها
معنى التّبضّات، وأدركت قبل قليل مضمون الحياة، وحركة
الدماء الدافقة.

وما هو النبي ﷺ يحزم أمتعته، ويتوجّه في ليلة باردة
الجدران إلى طُرقات المدينة ليسحب الأنوار التي نثرها في
جَنَبَات تلك الدروب العتيقة، ويودّعها حقيقته ويغادر.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي
مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ»^(١).

نحن على موعد مع شتاء الفجيعة، وزمهرير الفقد،
وموسم الدموع..

(١) رواه الترمذي وصححه الألباني.

ومات الرجل النبيل..

وماتت معه ابتسامة كانت قد تبرعت في قلب عمر،
وأغضت الهناء عينيها في نفس أبي ذر، وانسحبت ألوان الحياة
من عيني أبي عبيدة.

❧ وقبري..

يتجهز مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ قبل أشهر من موت النبي ﷺ لمغادرة
المدينة، فبمشي معه النبي ﷺ ليودّعه، ونسائم المدينة تَخْلُنُ
أريجاً لا تُفْنِيهِ إِلَّا المدينة.

فيهمس النبي ﷺ لحبيبه الذي قال له قبل مئة: «والله إني
أحبُّكَ يا مُعَاذُ».

يهمس له بسرٌّ مؤلِّمٌ: «يا مُعَاذُ، إنَّكَ عسى ألا تَلْقَانِي بعدَ
عامي هذا»^(١).

تتوقف نبضات مُعَاذٍ، وكل شيء من حوله يصطبغ
بنكهة النواح..

(١) رواه ابن حبان في صحيحه.

ثم يكمل النبي ﷺ همسه: «ولعلَّكَ أن تمرَّ بمسجدي هذا..
وقبري» فيبكي مُعَاذ.

كم هي قاصمة للظهر كلمة «وقبري»، كم هي مُفجعة،
كم هي مُحْرِقة، وكيف استطاعت قوَّة مُعَاذ ألا تهوي، وتُعلن
الانزمام في تلك اللحظة الاستثنائية؟

ما قيمة طريق العودة إذا كان الحبيب قد رحل؟

ولماذا معاناة الرحلة، إذا كانت الشمس قد غرَبَتْ؟
والابتسامة قد توارت؟ و«إني أُحِبُّكَ يا مُعَاذ» قد وُسِدَتْ
قبرها؟

❧ وداعاً

وفي عَرَفات، وقف النبي ﷺ أمام مشروعه الناجح، وقف
أمام أكثر من مئة ألف إنسان مسلم، كانوا جميعهم قبل عشرين
سنة يسجدون لهبلاً، ويعبدون العُزَّى، ويُعظِّمون مَناءَ الثالثة
الأخرى، والآن صاروا يهتفون: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ.

يقف في نفس المكان الذي نُقِصَتْ حياته فيه، وطُرد منه،
رُحِطَ لاغتياله، وهُتِفَ فيه بأنّه: شاعر، وكاهن، ومجنون،

والبوم مئة ألف يقول كل واحد منهم: أشهد أن محمدًا رسول الله.

هذه هي الشهادة العالمية، هذا هو الإنجاز الأكثر إبهارًا في تاريخ العالم كله، وفي تلك اللحظات الحاسمة، وأولئك الجموع الذين انتقل بهم من الجحيم إلى جنات النعيم يرقبون ما يقول قائدهم الملهم، فإذا بالصدمة تتغشى الجميع، يُخبرهم بكل وضوح:

«لَعَلِّي لَا أَفْاَكُم بَعْدَ عَامِي هَذَا»^(١).

لقد أنجزت مهمتي.. وجاء الوقت لأرتاح!

لقد صارت راحة السماء تُهبُّ على الرجل النبيل بكثرة، ونسائم الملائكة تُشَبِّعه في كل مكان، وكأنَّ نداءً غلويًا يُخبره: لقد آن لك أن تتدنَّر بالراحة، بعد ثلاث وعشرين سنة لم تتدنَّر فيها ولو للحظة، منذ أن أنزل الله عليك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ رُفِّقْنَا﴾.

ثلاث وعشرون سنة من الكفاح المُضْطَّرِّ، والجهاد الرهيب.. الآن يُمكنك الجلوس، لقد تعبت بما فيه الكفاية أيُّها الرجل النبيل.

(١) رواه مسلم.

كَيْفَ كَانَ وَقَعَ: «لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا» عَلَى
 قَلْبِ سَالِم مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ؟ كَيْفَ تَسَلَّلْتَ إِلَى نَفْسِ سَعْدِ بْنِ
 أَبِي وَقَّاصٍ؟ مَا هُوَ شَعُورُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ لَمَّا رَأَى النَّبِيَّ
 ﷺ وَهُوَ يَقُولُهَا، وَكَيْفَ انْهَدَّتْ قَوَى الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ وَحَبِيْبِهِ
 يُعْلَن: سَوْفَ أَغَادِرْكُمْ قَرِيبًا.

وهكذا أخذت خيوط النور في الاضمحلال، وشيء من
 برودة الموت يُعْمُ الأجواء، ونكهة الفراق الرهيب تُسيطر على
 المشهد، و«لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا» تُغْلِقُ عَلَى نَفْسِهَا فِي
 أَبْعَد مَكَانٍ مِنْ قُلُوبِ الصَّحَابَةِ.

❦ وانهمرت الدموع

فِي إِحْدَى الْوَقَفَاتِ الْوَدَاعِيَّةِ، يَقِفُ خَطِيْبًا عليه السلام يُرِيدُ أَنْ
 يَبْرَحَ، وَلَا يُرِيدُ أَنْ يَبْرَحَ.

يُرِيدُ أَنْ يَرِبْتَ عَلَى قُلُوبِ أَصْحَابِهِ قَبْلَ أَنْ يُغَادِرَ، وَلَا يُرِيدُ
 أَنْ يَقْتَهُمُوا كُلَّ شَيْءٍ فَيُبْشِعَ فِي أَرْوَاحِهِمْ لَهيبَ الوجد.

فَقَالَ بِرَمْزِيَّةٍ لِيَفْهَمَهَا مَنْ يَفْهَمُهَا: «إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ عَبْدًا بَيْنَ

الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله^(١).

كان الصحابة يستمعون، ظنّوه درسًا في تفاهة الدنيا، ظنّوا الكلام عن رجل من بني إسرائيل خيرّه الله؛ ولكنّ نشيجًا جاء من إحدى جنبات المسجد، نشيج أبي بكر الصديق، فألقى بقلاله على كلمات النبي ﷺ.

فقال النبي - وقد علم أن أبا بكر وحده من فهم ذلك الحديث المُلغز -: «لا تَبْك يا أبا بكر، لو كنتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَأَخَذْتُ أبا بكر خَلِيلًا».

وكأنّه أراد أن يَسْغَلَه عن ذلك الكرب الذي قُرِب وقوعه، فزاد نشيج أبي بكر، وانهمرت دموعه.

❧ طَرَقَاتِ الْوَجَعِ

ثم بدأ الوجع بطرق باب الرجل الذي مسح يُمْنَاهُ أَوْجَاعِ الْإِنْسَانِيَّةِ، سمع زوجته عائشة تشكي صُداعًا وتقول: واراأساه.. فقال بأبي هو وأمي وبنفسي: «بل أنا واراأساه»^(٢).

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري.

الآلم الحقيقي هو الذي أشعر به يا عائشة، إنه الآلم الذي
سيُعاني منه الكون مئات السنين بعد أيام قليلة.

ثم ما زالت الحمى تُمزق قوّته ﷺ ونسلبه القدرة على
المشي، فصار لا يستطيع أن يسير إلا واثنان بقودانه، وقدماء
الشرقتان تخطّان في الأرض، وأحزان الصحابة لحظتها تنهال
على الأرض، وكل شيء يتهاوى على الأرض!

٢٢٢ بل الرفيق الأعلى

وبانت المدينة خيمة حزن كبيرة، وكل بيت من بيوت
المهاجرين والأنصار انطفأ سراجُه، ودعوات تصعد من
التوافذ إلى السماء بأن يبقى ذلك المصباح ليضيء المدينة،
ليضيء الجزيرة، ليضيء العالم.

تخف الآلام قليلاً، فيخرج النبي ﷺ من حجرته، والصحابة
-رضوان الله عليهم- يؤدّون الصلاة، يخرج بوجه نقي منير
كأنه المصحف؛ ليلقي النظرة الأخيرة على مشروعه الضخم،
ليرى إنجازَه الأعظم، لبشاهد أولئك الذين كانوا يسجدون
للأوثان، كيف أنهم باتوا يسجدون للملك الديان.. فيتسم!

يتحدث الراوي أن الصحابة كادوا يُفْتَنُونَ، كادوا يقطعون
صلاتهم فرحاً بابتسامته التي غابت عنهم زمناً.

يعود النبي ﷺ إلى حجرته، فنعود له أوجاعه بأقوى مما
كانت عليه، فتكون عائشة بانتظاره، فيضع رأسه في حجرها،
ثم يقول: بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى.. ثم يجود بنفسه
الشريفة.. ليبدأ ملك الموت بانتزاع أطهر رُوح.

فتتهي في تلك اللحظة قصّة الرجل النبيل، تنتهي قصّة
الرجل الذي جاء والدنيا يأكل بعضها بعضاً، كُفراً، وظُلماً،
وطغياناً، فأضاءها، ومسح عنها وَعْثاء الكفر، ثم تركها
وانصرف!

❧ الفجيرة

ثم كانت الفجيرة، فَبُهِتَ الصحابة لهول النبأ!
عاصفة الخبر لم تُبق في شجرة التهامك لديهم ورقة، كلها
تحأَّت وانتثرت في أجواء المدينة التي أظلمت فجأة.
بالأس كانت جنة وارفة الظلال، واليوم صارت صحراء
منزمية الأطراف.

وكيف تتماسك نفس انهالت عليها صخور ذلك الجبل
الضخم، جبل الفقد الأبدي، والفراق السرمدى.

كان أبو بكر بالشُّنح، فجاءه الخبر، فلا تسَلَّ عن حجم
السواد الذي لُقِّه تلك اللحظة، فانطلق باتجاه الحجرة الشريفة،
ثم كشف عن وجه النبي ﷺ فرأى النور، رأى الحرِّيَّة، رأى
الهداية، رأى التاريخ، رأى الذكريات:

اتسأل عن أعمارنا؟ أنتُ عُمرنا
وأنتُ لنا التاريخ.. أنتُ المُحرَّرُ

نَدوبُ شُخوصِ الناسِ في كلِّ لحظةٍ
وأنتُ مع الأيَّامِ في القلبِ تكبُّرُ

ثم قبَّله قبلة الوداع، ودموعه أغرفت تلك اللحظات،
وصوت النواح يملأ الفراغ الهائل الذي في قلب أبي بكر، ثم
قال: طِبَّتْ حَيًّا وَمَيِّتًا يَا رَسُولَ اللَّهِ.

تغدو نظرات الوداع للإنسان الذي لم تكن شيئًا قبل أن
تعرفه كالبيت الموحش المليء بالصدى.

أما كلمائِكَ الأخيرة معه، فيمثل التراب الذي تراه في يديكَ
وأنت خارج من المقبرة!

وصرخه أبي بكر العظيمة: «أرجوك لا ترحل»، لم يصبر عليها،
ولكن الكون كله سَمِعَهَا.

ينهض الصديق وعلى كتفيه جبل اسمه الفراق الصعب،
ليتدارك الأئمة قبل أن تشقق في وديان الهلع، فإذا بعمر شاهراً
سيفه في المسجد يقول للناس: مَنْ زعم أن محمداً قد مات قطعت
عنقه!

فيأتي أقرب الناس للنبي ﷺ، وأعرف الناس به وبشريعته
وبمشرّوعه العظيم، ويقول: اسكُت يا عمر! ثم يقوم خطيباً:
ويقول للقلوب التي ما زالت تُخالِجُها الظنون: «مَنْ كان يعبُدُ
محمداً، فإن محمداً قد مات.

فبسقُط عمر على ركبتيه..

ثم يكمل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنِ
مَاتَ أَزْفُسٌ أَنْفَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾.

أغشي على عمر، وفجأة ضاعت الجزيرة التي كان يظن
أن زورفه سيرسو عليها، لقد انتهت آخر فرصة لنجاة رُوحه
المكلومة.

مات! هكذا؟ مات، دون أن يقول لي: وداعاً!

الذي حوّلني من رجل على هامش الحياة، لا يُقِنُّ إلا ضرب الجوارح، وتهديد الغلمان، فصرتُ بعدَه عمر الفاروق! الذي تهرب مني شياطين الإنس والجن، مات؟ لن أجلس معه بعد اليوم؟ لن أمسك يده مرّة أخرى، لن أستنشق عطره للأبد؟

وأما عثمان بن عفّان فأخرس، فبكلمه الناس ولا يكلمهم، بذهول، صار لا يرى في هذا الكون إلا جنازة حبيبه قد غطّت الأفق، فصار الناس يقودونه فينقاد، وكأنّه تائه في هذه الحياة. وأما عليّ بن أبي طالب فما إن سمع الخبر حتى لُبط بالأرض، خارت فواه، فسقط.

وأما أنس بن مالك فصار يمشي في طرقات المدينة، وينظر إليها فبراها مظلّمة.

وعبد الله بن مسعود يُمسك عوداً، يَنكُثُ به التراب ويقول: يوم الخميس وما يوم الخميس؟ يوم زار فيه المرض رسول الله.

أما فاطمة بنت محمّد ﷺ فأنت إليهم وهم يدفونه فقالت: كف رضىث لكم أنفسكم أن تدفنوا رسول الله؟

وَأَسْئَلُهُ نَفُتْ فُؤَادِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ الْمَكْلُومَةِ: كَيْفَ سَتَسْتَفِيقُ
فِي الْغَدِّ؟ وَمِنْ أَيِّ جِهَةٍ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ سَتَشْرِقُ الشَّمْسُ؟
وَكَيْفَ سَتَفَاتِحُ الْعَصَافِيرَ النَّائِمَةَ فِي صَبَاحِ الْغَدِّ بِالْخَبْرِ؟

طَرِيقُ الْعُودَةِ

وَجَاءَتْ لِحْفَةُ الْعُرْدَةِ لِلْيُيُوتِ، بَعْدَ إِيدَاعِهِ ﷺ قَبْرَهُ، إِنَّهُ
أَطُولَ طَرِيقِ عُودَةٍ يَشْعُرُونَ بِهِ أَمَّا كُلُّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا فَقَدْ طَعَمَهُ،
وَقَدْ لَوْنَهُ، وَفَقْدَ بَرِيْقَهُ وَصَارَ اللَّوْنُ الرَّمَادِيُّ مُوزَّعٌ عَلَى
الْأَوْجَةِ، وَالْثِيَابِ، وَالطَّرَقَاتِ، وَالْأَصْوَاتِ بِالتَّسَاوِي.

حَتَّى نَخِيلِ الْمَدِينَةَ بَانَتْ شَكْلًا عَبَثِيًّا آخَرًا؛ يُوْحِي بِالْمَوْتِ
أَكْثَرَ مِنْ إِيْحَانِهِ بِالْحَيَاةِ.

يَصِفُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ تِلْكَ الْمَشَاعِرَ فَيَقُولُ: «أَتَكْرَهُنَا
أَنْفُسَنَا.. فَلَمْ تَتَغَيَّرِ الطَّرَقَاتُ، وَالْأَزْقَةُ، وَالْأَمَاكِنُ فَحَسْبُ،
بَلْ حَتَّى الْأَنْفُسُ صَارَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهُ يَشْعُرُ أَنَّهَ كَيْسُ
طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدٍ اللَّهُ.. وَبَاتَ أَبُو هُرَيْرَةَ يَشْعُرُ بِشَيْءٍ غَيْرِ أَبِي
هُرَيْرَةَ يَسْكُنُ نَفْسَهُ، وَصَارَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ يَفْتَقِدُ النَّبِيَّ ﷺ
وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ!

أسراب الطيور

سير أبو بكر وعمر، وكل واحد منهما يرى في صاحبه شيئاً من أيام الرجل النبيل، وكأنَّ صوت النبي ﷺ وهو يقول: «ذهبْتُ أنا وأبو وبكر وعمر» وخرجتُ أنا وأبو بكر وعمر» يدقُّ في قلوبهما، فلا يُريدان أن يُغيَّرا ما كان يشعر به الرجل النبيل من تعانق رُوحَيْهما.

قرَّرا ذات يوم أن يزورا سويًّا أم أيمن، كما كان النبي ﷺ يزورها.. فلما وصلا إليها بكت! فقالا لها: ما يُبكيك؟ إن ما عند الله خير لرسوله..

ف قالت: إني أعلم أن ما عند الله خير لرسوله، وأن رسول الله قد صار إلى خير ممَّا كان فيه، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع عنا من السماء.. فهئجتهما على البكاء، فجعلتا يبكيان معها..

كل وجه بُرى بلمحون فيه وجه الحبيب، وكل عطر يعبق يستشقون معه عطر الحبيب، وكل صوت يُسمع يسمعون معه صوت الحبيب..

حتى صوت بلال بن رباح فيه من تلك الأيام الخالدة..
ولكنَّ بلالاً لم يستطع أن يثُرَّ صوته كما كان يفعل، فلم تستطع
حنجرته بعد ذلك اليوم أن تؤذُن، فاعتزل الأذان، فصوته
الصوت الذي يأتي معه بأسراب طيور لم تكن تخلق إلا في زمن
الرجل النبيل!

مكث في المدينة مهدود القوى، فمسجد النبي ﷺ، ومنبر
النبي، وبيت النبي.. يُذكره بالنبي ﷺ فيقرّر الرحيل ليداري
أحزانه بطريقة ظنّها ستخفف مواجهه؛ فرحل إلى الشام،
والدروب تنوح برياح الوجع.

❦ ضجيج الذكريات

ما أحرق الذكريات إذا ضجّت بها الأمكنة..

في كل زاوية عطر منه يهب، وفي كل كلمة يسمع الصحابة
نبرته، ومع كل أذان يتخيلون وجهه وهو يتسم.

مسكين معاذاً كلما أمسك شخص بمنكبه التفت بلهفة،
يبحث عن النبي ﷺ، فإذا بوجه آخر، وغصة أخرى.

محزن أبو بكر! كلما طرقت الرياح بابَه يخرج مسرعاً، ثم لا
يجد أحب الناس.

مؤثر حال عمرو بن العاص! كلما ابتسم له إنسان يبحث
في ملامحه عن النبي ﷺ، فإذا به ليس الذي كأن الشمس
تجري في وجهه.

مسكين الطفل أبو عُمير! لم يأت شخص آخر ليسأله: ما
فعل الثَّغِير؟

مسكين بلال! لم يسمع ذلك الصوت العظيم الذي يقول
له دائماً: أرحنا بها يا بلال.

مسكين عمر! لم يقل له شخص آخر: لا تُثسنا من دعائك
يا أخي.

مسكينة المدينة! فقدت أعظم نور أشرق عليها، فقدت
أروع عطر تَصْوَغ في طرقاتها، فقدت القلب الرحيم، فقدت
النفس العظيمة، فقدت الرجل النبيل.



المحتويات

الإهداء	٥
المقدمة	٧
افرأ باسم ربك	١١
في الغار	١٤
التحول	١٨
المعجمُ الوُرْدِيُّ	٢٧
لا أدري	٢٨
ثم من؟	٣٠
انعممُ الوُرْدِيُّ	٣١
أحبك	٣٣
تاريخُ الشوفي	٣٨
أفوى من النسيان	٤٣
أولاً وثانياً وثالثاً	٤٣
عرفنا الحزن	٤٥
سفع الجبل	٤٦
اللهم هالة	٤٨
نفس الرماح	٤٩
وفاء للشهامة	٥٠
احمرارُ البأس	٥٥

٥٦	وَيُدْخِلُكَ النَّارَ.....
٥٨	لَمْ تَرَاعُوا.....
٦٠	احْرَارُ الْبَاسِ.....
٦١	الآنَ حَيَّيْ الزَّوْطِيَّسُ.....
٦٧	الجزء المقدس.....
٦٨	رُدُّوا لها ولدها.....
٦٩	اعْلَمْ أبا مسعود.....
٧١	أَنْبَنِ الْعَبَّاسِ.....
٧٢	غابة عصافير.....
٧٣	اذهبي.....
٧٩	عندما بكفبك الخصير.....
٨٠	ونزكها.....
٨٢	فهفهة.....
٨٣	جَنَاحُ بَعُوضَةٍ.....
٨٥	إِلَّا أَعْطَاهُ.....
٨٧	عابِرُ سَبِيلٍ.....
٨٩	انْشُرُوهُ.....
٩٣	نَسِيَانُ الذَّامِتِ.....
٩٤	العفو عن قِرْعُونَ.....
٩٥	مَنْ يَمْتَعِكُ مِنْي؟.....
٩٨	رُوحُ شَاسِعَةٍ.....

٩٩ إن بُشْتُ
١٠٥ الإِطَارُ الْأَجَلُ
١٠٦ أَيْنَ مُحَمَّدٌ؟
١٠٨ بِلَا مُرَكَّبٍ
١٠٩ غَلِظُ الْحَاشِيَةِ
١١١ عَصِيمٌ فِي خَرَابَةٍ
١١٥ وَكَانَ إِنْسَانًا
١١٦ إِنْسَانَةٌ بِحَنَةٍ
١١٧ بِنْدُ الْعَادِيَةِ
١١٨ رَعِشَةُ خَوْفٍ
١١٩ الْمُعَاذِلَةُ الصَّعْبَةُ
١٢١ لَا أُرِيدُ رُؤْيَاكَ!
١٢٢ مُضْحِكٌ
١٢٤ مَسْحَةُ مَلِكٍ
١٣١ عِبْقَرِيَّةُ الْإِلْهَامِ
١٣٢ الشَّاعِرُ؟!
١٣٤ الْمُنِيرُ الْمَلَانِكِيُّ
١٣٧ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ
١٣٩ حَتَّى أَوْلَكَ
١٤١ الْأَبْرَاجُ الْمَشْبُدَةُ
١٤٧ رَحْبِنُ الْبَرَادَةِ

١٤٨.....	أَذَقَبْتُ؟
١٤٩.....	يَا أَبَا عُمَيْرٍ
١٥١.....	عَنْبُ الطَّائِفِ
١٥٢.....	بَلْ يَسْتَحِبُّ
١٥٧.....	رَانِحَةُ الْمَطَرِ
١٥٧.....	فَتُمْطِرُ الْحَيَاءُ
١٦٠.....	فِكْرَةُ الْإِبْنَسَامَةِ
١٦١.....	فِي أَحْلَاكِ الظُّرُوفِ
١٦٣.....	نَحْتُ الْمَطَرِ
١٦٤.....	يَوْمُ الْإِثْنَيْنِ
١٦٩.....	وَأَظْلَمَتِ الْمَدِينَةُ
١٠٧.....	وَقَبْرِي
١٧١.....	وَدَاعًا
١٧٣.....	وَانْهَمَرَتِ الدَّمُوعُ
١٧٤.....	طَرَفَاتُ الْوَجَعِ
١٧٥.....	بَلِ الرِّفِيقِ الْأَعْلَى
١٧٦.....	الْفَجِيعَةِ
١٨٠.....	طَرِيقُ الْعُودَةِ
١٨١.....	أَسْرَابُ الطُّيُورِ
١٨٢.....	ضَجِيجُ الذِّكْرِيَّاتِ
١٨٤.....	الْخَائِمَةِ



الحمد لله



***ADVERTISING**

المملكة العربية السعودية - الرياض

darahdarah@hotmail.com

رقم الهاتف: 20080908 الفاكس: 2702769 - 011

@danihadarah ☎ 0551526172



02.25